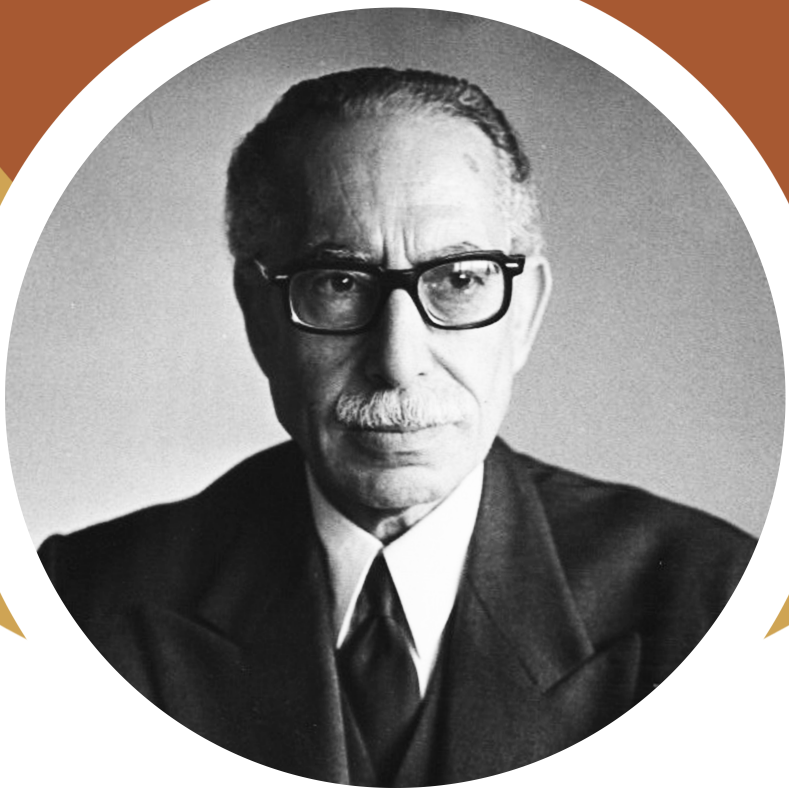

حماري
ومؤتمر الصلح

توفيق الحكيم

حماري ومؤتمر الصلح

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

حماري ومؤتمر الصلح

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٩١٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

من هو «حماري»؟	٩
حماري والطوفان!	١٣
حماري وهتلر	١٩
حماري وموسوليني	٢٧
حماري ومؤتمر الصلح	٣٣
حماري وحزبه	٣٩
حماري والذهب	٤٥
حماري والسياسة	٤٩
حماري والطالبة	٥٥
حماري والقاضية	٦١

رُوِي عن النبي أنه قال:

«إني لأمزح ولا أقول إلا حقًّا.»

عن أبي هريرة

من هو «حماري»؟

الحمار له في حياتي شأن ... إنه عندي كائن مقدَّس كما كان الجعران عند المصريين القدماء ... لقد عرفتُه منذ صغري في صورة جحش جميل اشتراه لي أهلي بثلاثين قرشًا، وجعلوه لنزهتي في الريف ... وكانت له بَرْذَعة صغيرة حمراء لا أنساها ... وكنا خير رفيقَين ... لا نفترق إلا للنوم ... فقد كان في مثل سنِّي ... أي في طور الطفولة من فصيلته، كما كنتُ أنا في طور الطفولة في جنسي.

على هذه الحال من المودة عشنا حتى فرَّقت بيننا الأيام؛ فذهبتُ أنا إلى مدارس الحَضَر، وبقي هو في ريفه ... وعدتُ في الصيف بعد أعوام، فوجدتُ الحياة قد تنكَّرت له؛ فالبَرْذعة الحمراء قد نُزِعت من فوق ظهره، وأُلقي بها في مكان مهجور ... ووُضِع مكانَها «غَبيط»، يُحمَل فيه التراب والسماد والطين ... فدنوتُ منه، ومسحت رأسه المُعفَّر بكفِّي، فنظر إليَّ نظرةً حزينةً، وكأنه يقول لي: «أرأيتَ؟! ... لقد ذهبت الطفولة ووَلَّت أيام الهناء!»

وحزَّت تلك النظرة في قلبي، ونظرت إلى من حولي قائلًا: «أَمَا كنتم تستطيعون أن تجنِّبوه هذا العمل الشاقَّ المُهين ... وتجعلوه على الأقل للركوب؟!»

وكأنه فَهِم عني، فقد رفع رأسه نحوي، وكأنه يقول: «لا فائدة! ... لا تُجهِد نفسك معهم ... ما من أحدٍ غيرك يعرف لي قدرًا!» ... ولم تستطع شفاعتي أن تغيِّر شيئًا مما كُتِب عليه ... فتركتُه لمصيره ... ثم بلغتُ مرحلة الشباب، وفرغتُ من الدرس، واشتغلتُ بتأليف الروايات التمثيلية ... فلم يَفُتني أن أجعل من الحمار شخصية في رواية لي؛ فظهر على المسرح ولم أره للأسف؛ فقد كنت غادرتُ مصر، وذهبتُ إلى أوروبا، فجاءتني الأخبار بأن الحمار أدَّى واجبه على أكمل وجه، وقام بدوره في الرواية على نحوٍ يستحق الإعجاب ... ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرةً عميقة، ثم فعل فعلةً غير لائقة لوَّثت

خشبة المسرح ... وخرج بين سخط الممثلين وهَرْج النَّظَّارة والمُتفرِّجين ... وقد بلغني أنه ضُرِب عندئذ وطُرِد وأُهين ... ولو كنتُ أنا حاضرًا لدافعتُ عن ذلك المسكين.

وأغلب ظنِّي أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية ... فناب عني في إظهار احتقاره له بالطريقة التي رآها مُواتِية.

ومضى نحو عشرين عامًا، فرأيت الجحش مرة أخرى في شوارع القاهرة، واشتريتُه بثلاثين أو خمسين قرشًا مرة أخرى، ولكن هيهات ... لقد كان هو في طفولته وأنا في كهولتي ... فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته ... أتُراه أدرك بسليقته أن أوان اللعب قد فات بالنسبة إليَّ! ... فآثَرَ أن يتركني سريعًا قبل أن أستكشف بنفسي هذه الحقيقة فأحزن؟ ... لقد سمَّيتُه «الفيلسوف»، وقد علَّمني أشياء كثيرة بمُجرَّد صمته وارتفاعه عن لُجَج هذا البحر الخِضَم: بحر السُّخف الإنساني!

ثم رأيت الحمار بعد ذلك في الريف أثناء زيارة قصيرة في أحد الأعياد ... ذهبت للراحة بضعة أيام ... وقد خطر لي أن أصطاد السمك في جدول غير بعيد ... فسِرتُ على أقدامي مع بعض الفلاحين يحملون لي عصا الصيد ... وساء تقديري لقوة احتمالي السير ... فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة ... ولم يجدوا لي حيلة غير وضعي على صهوة حمار من حمير التراب كان يعمل في حقل قريب ... ولم أرَ — والله — في حياتي أتعس ولا أشقى من ذلك الحمار ... كان الدم يقطُر من ظهره؛ لنقل «الغبيط» وهزال جسمه، وبروز عظمه ... ولا أحد يرحم ... وكان يتضوَّر من الجوع ويمد بُوزَه إلى كل عود أخضر يجده في الطريق، فلا يلقى غير اللَّكْم ممَّن يقودونه، ولا يظفر بغير اللَّطْم ... لقد كان ذلك الحمار مِلكًا لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين، الذين لا يملكون للحمير قوتًا ... ولا يدَّخرون ما عندهم من العَلِيق، إلا للجاموسة والبقرة التي تُدِرُّ اللبن. أما الحمار فهو في نظرهم لا يساوي أكلَه، وهو يُذكَر عند المهمَّة العنيفة والعمل الشاق ... ولكنه يُنسَى عند حلول الأكلة النظيفة؛ فعلى المسكين إذن أن يَلْتَقِط ما يُصادِف في طريقه من عُشبٍ مُهمَلٍ أو ورق زرعٍ متروك ... ولَيْتَهم مع ذلك يدعونه يفعل! ... فهم يدفعونه في ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلًا لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكَّأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض ... أما إذا حدَّثَتْه نفسه اللعينة فمال برقبته على حقل للذرة، وفقد رشده وخرج عن وعيه، وهبَر بأسنانه عودًا منها أو كوزًا دانيًا، فهي الطامَّة التي لا تُدانيها طامَّة؛ فإن الصياح يعلو من كل جانب، ويهرع أصحاب الزراعة بالهِراوات ينهالون بها على المسكين وهم يتصايحون: «حُوشُوا الحمار نزل غيط الذُّرَة!»

ذلك هو الحمار الذي امتطيتُه ذلك العصر ... وقد وجدت مشيته أبطأ من مشيتي ... ولكني فهمت السبب، فتركته يسير كما يشاء، ويلتقط ما شاء ... ونهَرْت كلَّ من أراد بالضرب حثَّه على الركض، بل لقد فعلتُ أكثر من ذلك؛ لقد تركته وقد شعر، ولا شك، بتسامح راكبه أن يمد فمه إلى كوز ذرة دنا من طريقه ... وشرع الفلاحون في الصياح فأسكتُّهم في الحال بقولي: «اتركوه! ... اتركوه!»

فسكتوا مُرغمين ... أما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحنًا سُمع له خشخشة وبلع؛ فكان لحركة البلع في حلقه مَعْمَعة، وخُيِّل إليَّ أني أرى الطعام يُحدِث عنده لذَّةً لم يُحسَّها المسكين منذ أمدٍ طويل ... وسار بعد ذلك وكأنَّ كل خطوةٍ من خطواته تسبيحة حمدٍ وشكر ... إلى أن بلغنا الجدول المقصود، فترجَّلتُ، وأخذنا في الصيد، وأوصيتُهم أن يتركوا الحمار يرعى الكلأ النابت على حافة الماء ... وشهد الله؛ لقد كانت ساعةً لم يَنعم بمثلها ... واللهُ إذا أعطى فإنه يعطي أحيانًا بغير حساب ... فقد تهيَّأ لذلك الحمار السعيد وقتئذٍ الماء والخُضْرة ... فأظفره الله بالباقي؛ أي الوجه الحسن في صورة حمارة شابَّة كانت ترعى هي الأخرى مع بعض خراف ونعاج على مقربةٍ منه ... فما راعني — وأنا مشغول بصيدي — إلا صوت من بين الفلاحين يصيح: «حُوشُوا الحمار والحمارة!»

فالتفتُّ فإذا المُغازَلة على أتمِّها بين الحبيبَين، فقلتُ لهم: «اتركوهما!» فتركوهما حتى انفصل أحدهما عن الآخر.

وفرغت أنا من صيدي، فركبت الحمار عائدًا وهو يركض بي كالمَرِح، فقد أكل، وشرب، وتنزَّه، وغازَل ... إنها لحظة من الهناء قد سرَّني وأسعدني أني أتَحْتُها له ... ولكنَّ القدر قد جعله يدفع ثمنها غاليًا ... فالمكتوب عليه الشقاء يجب أن يُحاسَب على كل فرحة تتسرَّب إليه خلسةً من يد القدر النائم ... ولم تمضِ بالفعل أيام حتى سمعت أن ذلك الحمار قد نَفَق جوعًا، وسقط إعياءً وسط الحقل، رازحًا تحت أثقال ما يحمل من تراب، فألقى الفلاحون بجثته في المَصرف ... ولم يكلِّفوا أنفسهم حتى مئونة دفنه، وضنُّوا عليه حتى بذلك التراب الذي قضى حياته التَّعِسة كلها في حمله على ظهره ... فلمَّا بلغني ذلك، أمرتُهم أن ينتشلوا جثته من الماء في الحال وأن يدفنوه.

ولستُ أدري حتى هذه اللحظة أفعلوا أم سخِروا وكذبوا عليَّ وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار.

من بين هذه الحمير الأربعة، أين حماري الذي يُحادِثني وأُحادِثه؟! ... إنه ليس واحدًا بالذات من بينها ... إنه جميعها ... إنه هو كُلُّها مجتمعةً في واحد ... هو روح هذه الأربعة

التي عرفتُ ... إنه النوع بفصائله، والفصيلة بصفاتها ... إنه أيُّ حمار، رأيتُه أو لم أره ... مهما تَكُن ظروفه ومصائره ... أيُّ حمار من تلك الحمير التي أعرف أو لا أعرف، هو لي صديق ... أحبُّه وأَحدَب عليه، وأفهم ما يجول في خاطره ... وأنظر إلى عينَيه وأُصغِي إليه، فيُخيَّل إليَّ أن صمته الطويل قد انفرج عن حديثٍ مُؤنِسٍ يُدلِي به إليَّ، وأسئلة طريفة يُلقيها عليَّ.

حماري والطوفان!

جلس حماري إلى جواري كما اعتاد، وقال: أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفَّع عن مُجالَسة مثلي!

قالها بنبرةٍ أعرفها في صوته ... إنه مخلوق يجيد نوعًا من السخرية ليس من الهيِّن أن يُلمَح في كل الأحيان ... لأنه مُغلَّف في طيَّات التواضع والتسليم والإذعان، ولكني أعرف فيه قوة المقاومة، وصلابة المِراس، وشيئًا من الاعتداد بالذات، لا يظهر إلا إذا وُخِز وخزةً تجرح نفسه ... لذلك ألجأ معه إلى المزاح في القول، والإغلاظ في التهكُّم، حتى أُرغِمه على مصارحتي بكل مشاعره. فأجبته: وأنا أخشى أن يركبك الوهم فتحسب أنه لا فرق بيني وبينك!

– لا تَخَف ... إن الوهم لا يركبني أبدًا ... لم يركبني غير الواهمين!

– من أمثالنا معشر البشر! ... أليس هذا ما تعني؟

– ما أردتُ أن أمسَّ كرامتك ... إن بيننا وبينكم صلات وُدٍّ من قديم ... لقد زاملناكم، وركبنا معكم سفينة نوح في عهد الطوفان.

فأدركتُ غرضه الخفي من الإشارة إلى هذا المستند التاريخي وبادرت أقول: ليس هذا بدليلٍ على الزمالة ... لقد رَكِبَت معنا كل الحيوانات، مما يُؤكل ومما لا يُؤكل ... من الأسد والفيل، إلى الفأر والخنزير ... واقرأ تاريخ أبي الفداء، تجد فيه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات: طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. ولقد فكَّرنا — نحن الإنس — فيك، وخِفنا على أمثالك من الدوابِّ أن يفترسها الأسد، فدعا نوح ربه فسلَّط على السَّبع الحُمَّى، فكانت أول حُمَّى نزلت في الأرض ... ثم شَكُوا الفأرة لإفسادها الطعام والمتاع، فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرَّة منه فتخبَّأت الفأرة منها ... وكثر أرواث مثلك من الدواب، فأوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه

خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الرَّوْث ... إلى غير ذلك مما حدث في السفينة وتدبَّرناه نحن معشر الإنس بفكرنا الناضج؛ حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التي تقتضي الحل، وتستوجِب التدبير ... ولم نرَ منكم مَعُونة ولا زمالة تُهوِّن علينا محرجات ذلك الموقف الخطير.

– لا تتكلَّم عن فصيلتي ... لقد كان لنا رأيٌ في السفينة والطوفان ... وما دُمتَ تذكر التاريخ والمُؤرِّخين، فارجع إليهم يُنبئوك أن آخِر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار!

– وما هو، من فضلك، رأيكم في السفينة والطوفان؟

– لا تسألني رأيي، بل أجبني أنت بفكرك الناضج: لماذا كان الطوفان وكانت السفينة؟

– لماذا؟ ... للظلم والفساد اللذَين كانا قد عَمَّا الأرض ... وللضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان.

– من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام، وبمن عليها من طغاة وأصنام، إلَّا تلك النخبة الصالحة التي وُضِعت في السفينة، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير، وأجيالًا جديدة يقودها الحق؟!

– هو ذاك؟

– وهل ساد بعد ذلك الخير، وانتصر الحق؟!

– ماذا تعني؟

– لم يَقُل لك مُؤرِّخوك: «إن قوم عاد كانوا أول من عبد الأوثان بعد الطوفان»؟! ... كل شيء رجع فنبت من جديد ... بعد أن غِيضَ الماء ... وبلعت الأرض ماءَها، ورجعت الحمامة إلى نوحٍ وفي منقارها ورقة الزيتون، وفي رجلها الطين، واخضرَّ وجه الأرض، ونبت فيها الزرع والضَّرْع، والخير والشر أقوى مما كان وأخصب.

– نعم ... نبَت الشر من جديد ... أتدري لماذا؟ ... لأن إبليس كان قد دخل السفينة مع مَن دخل، ولم يُغرِقه الطوفان مع من أغرق ... أتدري كيف تسلَّل إبليس إلى السفينة؟

– لا ... كيف تسلَّل؟

– يُروَى عن المؤرخ ابن عباس أن إبليس دخل مُتعلِّقًا بذنَب الحمار!

– أَوَكَان ابن عباس هذا شاهد عيان؟!

– لستُ أدري ... إنما أُحدِّثك بما جاء في بطون الكتب.

– خيرٌ لك أن تُحدِّثني برأيك أنت في نتيجة كل ذلك؟

– نتيجته أن نوحًا خرج بعد ذلك إلى الأرض، هو ومن معه من إنسٍ ودواب ... وابتنى مذبحًا لله، وأخذ من الطير والدواب الحلال، فذبحها قربانًا إلى الله، سائلًا إياه ألَّا يُعِيد الطوفان على أهل الأرض ... فعهد الله إليه ألَّا يعيده، وجعل تذكارًا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قزح، الذي قال ابن عباس إنه أمانٌ من الغرق، وقال آخرون إنه قوس بلا وتر؛ أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

– الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة، بعد أن ثبتت قلة جدواه في المرة الأولى!

– أنت تقصد — ولا شك — طوفان الماء ... هذا حقيقة ... لم يحدث غير مرة، وقد وعد الله بألَّا يُعيده ... ولكنه استعاض عنه بطوفان من نوعٍ آخَر يحدث في كل جيلٍ مرةً أو أكثر ... ذلك طوفان الدماء!

– حتى طوفان الدماء ماذا صنع؟ ... وماذا أجدى؟ ... ألم تكن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء؟!

– طبعًا.

– لقد انتهت النازلة، وخُتمت المجزرة، وشربت الأرض دماءها وابتلعت آثامها ... وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حُطِّمت، وأوثان الطغيان قد هُدِمت، وأن الحق وحده هو المسيطِر، وأن الخير هو المنتصر ... وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواءٌ أمام سلطان الحق وحده ... وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساويةٌ أمام سيد واحد هو: النفع العام لبني الإنسان، دون أثرةٍ أو نعرة ... ونهض الناس ينظرون في كل أممٍ إلى قوس النصر وقبر الجندي المجهول، كما نظروا إلى قوس قزح ... سائلين الله ألَّا يُعيد الحرب مرةً أخرى ... فما الذي حدث؟ ... أَجِبني ... ما الذي حدث بعد ذلك؟

– حدث الذي حدث في الطوفان الأول، بلا زيادة ولا نقصان ... حدث أن تعلَّق إبليس بذيل ...

– بذيل مَن؟

– بذيل الرئيس ولسون! ... صاحب المبادئ الأربعة عشر المشهورة، التي كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام.

– إذن، لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر؟

– بالطبع ... وها نحن أولاء في طوفان جديد ... لم تبتلع الأرض بعدُ دماءه، بل لو ذهبت الحمامة لَمَا وجدت ورقة زيتون تلتقطها، ولا عشًّا تأوي إليه ... فقد ضربت القنابل كل بناء، وهدمت كل جدار ... ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين، وينظرون إلى الغد مستبشرين، ويُعلِّلون أنفسهم بأن هذا آخِر طوفان.

– كما قالوا في كل مرة!

– أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل، وأن تبلغ رشدها، وأن تتحرَّر نهائيًّا من طغيان الغرائز الدنيا، وأن تكفَّ عن تمزيق بعضها بعضًا، وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفةً لمصلحة الإنسانية كلها جمعاء، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء، ودون تمسُّك بغرور كاذب، وعظمة زائفة، وحب تسلُّط، وشهوة سيطرة.

– قل بالاختصار: دون عبادةٍ لأصنام الكبرياء الذاتي.

– هو ذاك.

– اسمح لي أن أقول إن هذا شيء عسير على الإنسان ... لا بد للإنسان من عبادة الأصنام ... لم يستطع طوفان الماء، ولا طوفان الدماء، أن يغرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه! ... إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله ... لأن الله لا يُميِّز بين جنس وجنس، ولا فصيلة وفصيلة ... هو النور العام الذي يضيء كل الكائنات ... وهو الحب العام الذي يربط كل شيء بكل شيء ... ولكن الإنسان لا يفهم ذلك ... إنه لا يرى إلا ما تصنع له يده من صور نفسه الجَشِعة الأَثِرة، المتعجرفة العمياء ... كلا، إن الله بعيد بعيد عن الإنسان ... وإنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الإنسان ... ربما كنت أنا وفصيلتي أقدر على حبه ... وهل سمعتَ منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عبدت أصنامًا؟!

– إني معك ... مع الأسف.

– أجبني إذن: ما فائدة الطوفان إذا كان ...؟!

– إذا كان لا يستطيع أن يغرق إبليس؟!

– أرجو — قبل كل شيء — ألَّا تُصدِّق أن إبليس دخل السفينة متعلقًا بذيل الحمار!

– بل هذا أُصدِّقه.

– تُصدِّق هذا؟!

– بالتأكيد ... لأن الحمار يحمل نفسًا صافيةً ومبادئ مثالية، وإبليس خبيث، يحب العبث والسخرية، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر إلَّا من أصحاب النفوس الخيِّرة والمُثُل العليا! ... فلا عجب، إذا دخل مكانًا، أن يتعلَّق بتلابيب أطيب القوم قلبًا، وأسماهم فكرًا ... إنه لا يُلازِم التافهين، ولكنه يتمسَّح بذوي الشأن ... إنه يحب الدخول من الباب الكبير ... لذلك تراني أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق ... أبحث عن الرجل المثالي الذي سيدخل في أذياله إبليس!

– أكُتِبَ عليكم هكذا — معشر البشر — أن تعيشوا في سفينة ضالة في بحر الظلمات، بغير المثل الأعلى ... تحيون كالديدان في الحمأة، يأكل بعضكم بعضًا؛ فإذا وُجد فيكم من يحمل مشعل المُثل العليا، انقلب سخريةً للساخرين، ولعبةً في أيدي العابثين؟!

– تلك هي المشكلة.

– حتى الطوفان لم يحُلَّها.

– لم يُجعَل الطوفان ليحُلَّ شيئًا ... ولكن ليُلطِّف من وقع الأشياء ... إنه حمَّام يُهدِّئ أعصاب البشرية كلَّما احتاج الأمر ... لقد فقدتُ الأمل في وجود العلاج الحاسم ... فلم يَعُد حتى طوفان الدماء في نظري غير نوع من الحجامة أو الفَصْد، يلجأ إليه الإنسان كلَّما ازداد الضغط.

– أتدري أين العلاج؟

– أين؟

– عندي.

– عندك؟

– نعم ... عندي العلاج ... وإذا قلتُ لك: عندي؛ فإنما أقصد عند فصيلتي ... فنحن نفكر جميعًا تفكيرًا واحدًا؛ فليس عندنا حمار مثالي وآخَر مادي ... وليس عندنا زعماء ولا قادة، ولا أوثان ولا أوطان، بل يوجد حمير على أرض الله وكفى ... شعورها واحد وقلوبها واحدة.

– هذا جميل.

– نعم ... ولذلك أستطيع — إذا سمحت لي — أن أجد العلاج لكم معشر الإنسان!

– حقًّا ... هذا هو الذي كان ينقصنا! ... يا لمجد الإنسانية المنهار! ... أيُذِلُّنا القدَر هذا الإذلال فلا نجد من يهدينا إلى علاج أمرنا غير حمار؟!

– كبرياؤكم ... كبرياؤكم ... كبرياؤكم الزائلة ... إنها في دمكم! ... دمكم الذي فسد ... لا أمل فيكم ولا علاج لكم إلا بعملية نقل الدم ... نقل دم جديد.

– أظنُّك ستقترح أن يُنقَل إلينا دم حمير!

– لا ... إنها لَتضحية كبرى من فصيلة الحمير، لا أنصح لها أن تتحمَّلها من أجلكم!

حماري وهتلر

جعل حماري يُحدِّثني ذات مساء في الطغيان والطغاة، ويسترسل في الحديث ... وأنا عنه لاهٍ كالنائم، وما أنا بنائم ... فلقد انتزعني خيالي وطار بي، وألقاني في أساطير الماضي، بين يدي «شهرزاد» وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة ... وقد أبرزتها في كتابٍ ... آه! ... يا لها من امرأة!

شهرزاد! ... إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم، فاعلم أنك لفظت اسمًا عظيمًا، فهو اسم تلك التي استطاعت أن تجعل من شهريار سافكِ الدماء رجلًا مهذبًا، محبًّا للخير، مترفعًا عن العدوان ... لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسدًا أصم، أو الريحُ المُخصِبةُ واحةً مُقفِرةً. واهتدى شهريار بهديها، وتمَّت بذلك معجزتها، فانزوت في بطون الأساطير.

ولكن في هذا العصر، عاد شهريار جديد إلى الظهور، لا في صورة ملك، بل في صورة (فوهرر) يقطن قصرًا، لا في بغداد، بل في برختشجادن ... وهو لا يكتفي بذبح عذراء في كل صباح، كما كان يفعل شهريار الأول ... بل إن «حمَّام الدم» الذي لديه أرهَبُ وأروع!

وشَرَد بي الخيال فتصوَّرت شهرزاد تستشيرني — بصفتي مؤلفها — في أن تذهب إلى الزعيم العصري كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر؛ لعلها تظفر بهدايته، كما ظَفِرت بهداية سلفه، ولعلها تنتشله من الطغيان، وتربحه لخير بني الإنسان ... فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة، ولكني تردَّدتُ إشفاقًا عليها وقلت: أيَّتها العزيزة شهرزاد! ... جُعِلتُ فداكِ ... لقد خطر ببالي كلُّ ما خطر لك، ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد، فرسمتُ «لصاحبنا» من الصور ما سوف يُعرِّض عنقي لمُدْيته، ولسوف أُدعَى إلى حمَّام الدم، وأنا لا أعرف السباحة، فيكون هذا حمامي الأول والأخير ... أما أنت

يا ذات الجميل ... يا مَن اعتدت السباحة بجسمك العاجي في ذلك الحوض من المرمر القائم في قصرك العجيب ...

فقاطعتني شهرزاد قائلةً: أتخشى عليَّ وأنا الخالدة؟! ... خَفْ على جلدك أنت أيَّها المخلوق الهالك! ... أكبر ظنِّي أن إشفاقك هذا ليس على شخصي بالذات، إنما هو على كتابك عني؛ الحامل اسمي، الذي سوف يُحرَق ويُباد إذا فشلتُ في مهمتي ووقع بيني وبين هتلر العداء ... يا لهؤلاء الأدباء والكُتَّاب! إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم.

وتركتني بلا تحية ولا وداع، واختفت عن بصري، وارتفعت في الفضاء، ومضت إلى قصر «برختشجادن».

كان هتلر، في ذلك المساء، منفردًا في قاعة كبيرة من قاعات القصر، يُطيل التأمُّل أمام خريطة حربية، وقد شَرَد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بِلَّوريَّة تُشرِف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذي يقوم عليه قصره المنيع، وإذا هو فجأةً يسمع خلفه حفيف الثوب، وهفيف غِلالةٍ حريرية، ويشمُّ عطرًا شرقيًّا ملأ جو المكان، فاستدار، فألفى نفسه وجهًا لوجه أمام امرأةٍ لم يقع بصره قط على أجمل منها ... فعُقِد لسانه، وجَمَد في مكانه، ومرَّت لحظة أو لحظات ... ثم أفاق قليلًا: وقال لها (كالهامس): مَن أنت؟

فقالت الجميلة: أنا شهرزاد ... جئتُ إليك من الشرق.

وكأنما غُمِر هتلر في حلمٍ، فإذا هو لساعته يحسُّ الأشياء من حوله تخِفُّ وترتفع قليلًا في الهواء، وحُلَّت عقدة لسانه، وتحرَّك من مكانه، وخفَّ لاستقبال شهرزاد، وكأنَّه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام ... وأجلسها في صدر القاعة ... وأراد أن يُقدِّم إليها من الطعام والشراب ما يُقدم إلى الأضياف الكرام ... فأبت وشكرت، وأشارت إليه بالجلوس والإصغاء، قائلةً: فلأُخبِرك أولًا سريعًا لماذا جئتُ إليك. إن مقابلتنا الساعةَ قد يتوقَّف عليها مصير العالم.

فقطَّب هتلر جبينه، وزالت عنه قليلًا غمرة الحلم وقال: جئتِ في مهمَّةٍ سياسية؟ ... فهمتُ ... ما أجملَك رسولًا من الدول الديموقراطية! ... إنها لَشجاعة منك أن تقودي طائرة بمفردك! ... أين هَبَطَت، يا سيدتي، الطائرة التي جئتِ بها؟

– أية طائرة؟

– عجبًا! ... كيف جئتِ إذن؟

– قلتُ لك أنا شهرزاد ... شهرزاد الأساطير ... شهرزاد التي طالعتَ خبرها — ولا ريب، ولا ريب — وأنت صغير ... وأنا بالطبع لا صلة لي بالديموقراطية أو الفاشستية؛ لأني — كما تعلم — أنتمي إلى زمانٍ لا يعرف هاتَين الكلمتَين ... إنما أجيء إليك اليوم بصفتي الشخصية، كما جئتُ من قديم إلى الملك شهريار، فلبثتُ عنده ألف ليلة وليلة، أقصُّ عليه من ألوان القصص ما غيَّر نظره إلى الحياة.

فقاطعها هتلر قائلًا، وهو ينظر إلى خريطته الحربية: ليس لديَّ وقت للإصغاء إلى القصص.

– هذا من سوء الحظ.

قالتها شهرزاد بنظرة لم تصمد لها عيناه، فأطرق قائلًا: ربما كان هذا من سوء حظي حقًّا؛ فأنت امرأة جديرةٌ أن يجلس إليكِ رجلٌ أكثرَ من ألف ليلة وليلة، ولكني مشغول كما ترين، ولا أحسبني أملك الإصغاء إليك أكثر من ليلة ... إن العصور قد تغيَّرت ... وإن مصائر الشعوب تتقرَّر أحيانًا في جلسةٍ واحدةٍ بقاعة مؤتمرٍ أو مقصورة قطار ... اطرُقي يا سيدتي الموضوع من بابه ... وأوجزي!

لم تيأس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة ... وقالت مترفِّقةً: اطمئن! إني لا أجلس إلى أحد رغمًا عن إرادته، وإني لَمُقدِّرةٌ قيمةَ وقتك الثمين الذي تنفقه في ... في هدفٍ لا أُقِرُّك عليه، وقد أكون مخطئةً، وقد تكون أنت المخطئ ... ثِق أني غير مُقيَّدة برأي ... غير مُتعصِّبة لمبدأ ... إني حرَّة حتى الآن مثل هذا الهواء، وقد جئتُك لأُقنِعك بما أرى، أو لتُقنِعني بما ترى ... فليكن بيننا الساعةَ صراعٌ هادئٌ بين روح المبادئ ... هل قَبِلت؟

– قَبِلت.

قالها هتلر مبتسمًا، وقد طَمِع في إقناع شهرزاد، وأمل في أن يربحها هو إلى جانبه، ومَن يدري؟ لعلَّه يستطيع أيضًا بعد ذلك أن يُلحِقها بوزارة دعايته تحت إدارة الهرجوبلز ... ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه ... هنا رفع رأسه مُستبشِرًا ... ومرَّ بيده على خُصلة شعره المُتهدِّلة على جبينه كأنها جناح غرابٍ وقال: سوف أُقنِعك بمبادئي.

– بغير عنف؟

– بغير عنف.

– إنه رِبح لا يُستهان به، أن تسمح بحرية الرأي والكلام والمناقشة، ولو إلى أجل قصير!

قالتها شهرزاد بابتسامةٍ ذات مغزى، فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع في فخ هذه الشرقية الجميلة ... فليس هو الذي قد يكسبها ويجذبها إلى النازية ... ولكن الخوف أن تجذبه هي — بغير أن يشعر — إلى روح الديموقراطية ... فتجهَّم وجهه، وعادت إليه من الفور طبيعة الجبروت، فضرب المائدة بقبضته وصاح: كلا، لستُ أسمح هنا، على الإطلاق، بحرية الرأي أو روح الديموقراطية، وأرجو منك أن تكُفِّي عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردتِ أن نتفاهم!

فابتسمت شهرزاد وقالت مُتلطِّفةً: وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم؟! ... ماذا تخشى مني وأنا أُحادِثك على انفرادٍ والأبوابُ مغلقة، ولا يسمع حديثنا أحدٌ من شعبك؟! ... إذا لم تُطلِق لي الحرية الساعةَ في محادثاتك، فمعنى هذا أنك تخشى أن أُقنِعك.

– كلا، لستُ أخشى شيئًا ... تحدَّثي بكل ما تريدين.

قالها وهو يتلفَّت يمنةً ويسرةً ليتأكَّد من أن الحيطان ليس لها آذان ... واعتدلت شهرزاد في جلستها وقالت: إني لا أحب العنف في الإقناع؛ لا لأني ديموقراطية النزعة؛ فأنا — كما قلتُ لك — لستُ أنضوي تحت حزبٍ من الأحزاب، ولكن تلك طبيعتي منذ القِدَم ... إنك — ولا شك — تعرف قصتي مع شهريار ... هل تذكر أني لجأتُ إلى العنف في إقناعه؟!

– أشهد أنك كنت بارعة، ولكن ذلك لا يمنع من القول إنك كنت امرأة خَطِرة؛ لقد كنت أنت — ولا تؤاخذيني — الخليقة دون غيرك بحمَّام الدم؛ فإن المرأة التي تستطيع أن تُحوِّل مَلِكها عن سياسته، وأن تُغيِّر نظام حكمه في دولته، ولو إلى الأصلح؛ لَهِي — على كل حالٍ — امرأة ثائرة على النُّظُم.

– إني لم أكن ثائرةً، ولم أتدخَّل يومًا في سياسة شهريار، ولم أنصحه يومًا بإبرام أمرٍ أو الإقلاع عن فعل ... إنما دخلتُ حياته كبصيص النور الضئيل المُتسلِّل من خَصاص الأبواب، فإذا هو يرى ما لم يكن يرى، وإذا هو يُصلِح نفسه بنفسه، ويتحوَّل من حالٍ إلى حال، ومن سياسةٍ إلى سياسةٍ من تلقاء ذاته.

ففكَّر هتلر لحظةً ثم قال: ألم تَكُن هناك مؤامرةٌ من الشعب؟ ... إن شهريار كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها في الصباح، حتى كادت تنقرض من بلاده العَذارَى، فلا بد أن الشعب ضجَّ وغضب وتهامَس وتآمَر ... اعترفي! ... ألم تكوني مُوفَدةً من قِبَل الجماهير؟

– كلا.

– مَن يدري ... لو كان لشهريار «جستابو» في ذلك الحين لتدارك الخطر قبل وقوعه.

– الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك ... لو أن هذا حدث لَمَا كان ...

– لما كان اسم شهرزاد ظهر في سماء التاريخ ... ولَمَا عرفت الأجيال غير اسم شهريار وحده!

– دعنا من التاريخ ... إنما الذي يجب أن تَحفُل به هو الانقلاب الطيِّب الذي حدث لذلك المَلِك ... إنه — ولا شك — قد رضي عن نفسه كلَّ الرضا يومَ رأى الأشياء كما ينبغي أن تُرى.

سكتت شهرزاد ... وحدَّجت الفوهرر بنظرةٍ طويلةٍ فخفض بصره قليلًا وأطرق، ثم قال: إن لك، يا شهرزاد، أسلوبًا عجيبًا في الكلام ... إنك تريدين أن تُلقي في روعي أن هنالك أشياءَ عظيمةً ترينها أنتِ ولا أراها أنا ... وتحاولين أن تُدخِلي في نفسي الشك في مبادئي ... ولكن فاتك أني أضع العقل دائمًا في المحل الثاني، والفكر في المقام الثالث ... أما المكان الأول عندي فهو للإيمان ... إني أومن وأنا مغمض العينين، موصد الأذنين، مغلق العقل ... أومن بمبادئي وحدها ... أومن وأومن ثم أومن ... تكلَّمي بعد ذلك بما شئت.

فابتسمت شهرزاد ثم قالت في دهاء: مَن قال لك إني أريد أن أهزَّ إيمانك بمبادئك؟! ... إني جئتُ لأُقنِعك أو لتُقنِعني ... وقد أفشل أنا معك، وقد تفشل أنت معي ... إني توَّاقةٌ إلى الحرية ... حرية البشر أجمعين، ولقد ذهبت إلى شهريار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب في خطر ... مبدئي هو الحرية لكل إنسان، ولا استعباد لأي إنسان؛ فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه، سواء كان أنت أو خصومك ... هذا قولي فأغمض عينَيك عنه ... صمَّ أذنَيك إذا شئت، وأغلِق فكرك ... ولكني أنا فاتحة عيني وأذني لأتلقَّى عنك ما تقول، وأَزِن ما تُدلِي به، وأتقبَّل الطيِّب من حديثك إذا وُجد ... ولا أكره أن أقتنع بمبادئك إذا كانت نافعةً للناس؛ فإن المكان الأول عندي دائمًا هو للفكر الحر، والاقتناع المُطلَق، ثم الإيمان بعد ذلك ... تكلَّم فأنا مُصغيةٌ إليك.

واتكأت شهرزاد بساعدها على طرف المقعد، وغرقت فيه، ورَنَت إلى هتلر بعينَيها الصافيتَين العميقتَين، فاختلج قلبه قليلًا ... ولكنه تماسك وقال: اعلمي أولًا أني ذو قلب ... حذارِ أن تقارني بيني وبين شهريارك ... إنه كان يسفك دماء العذارى؛ لأنه لم يكن يعرف الحب ... أما أنا فقد أذنت بحمَّام الدم لأني أحب.

فقالت شهرزاد في سخريةٍ غير ملحوظة: امرأة؟

فأجابها هتلر في لهجةٍ مثل لهجتها: إني لستُ همجيًّا حتى أُقدِّم مثل هذا القربان لامرأة.

– إنك حقًّا رقيق الشعور!

– ما من امرأةٍ عندي جديرة بأن أُهرِق من أجلها قطرةً من الدم ... لقد قلت لك إني ذو قلب! ... وأي قلب؟! ... إنه أرحبُ من أن يحوي امرأة ... إنه يحوي ألمانيا.

وصَمَتَ ... فابتسمت شهرزاد، وقالت في هدوء: كنتُ أحسبه أرحب من ذلك ... وأنه يحوي شيئًا أعظم من ألمانيا.

– ماذا؟

– الإنسانية.

لفظتها شهرزاد في همسة عميقة ... فوَجَم هتلر لحظة، ثم قال: ماذا تعنين؟

– أعني أنك لو أحببت الجنس البشري كله، لا الجنس الآري وحده ... لكنتَ أعظم ألف مرةٍ ممَّا أنت الآن، وممَّا تريد أن تكون ... أَصغِ إليَّ مليًّا ... لماذا لم تفكر في هذا المجد؟ ... يُدهشني حقًّا أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة! ... إن حياتك معجزة لا ريب فيها؛ فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغايةٍ أعظم وغرضٍ أسمى؟! ... لماذا لم تُوجِّه قوتك وثورتك للارتفاع بالإنسانية كلها ... فيسطر التاريخ لك صفحةً لا يسطر مثلها لغير الرسل والأنبياء؟!

إن الصفحة التي يُعِدُّها التاريخ لأعمالك اليوم، ليست بذي شأنٍ عظيم، وقد كتب مثلَها لكثيرين من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية ... ففرحوا بأكاليل النصر الحربي الذي زان جباههم، ولم يفطنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذي يذبل بعد حين، ولقد ذبلت فعلًا، وهَوَت، وذَرَتْها الرياح؛ كل تلك الفتوح التي تفاخر بها أولئك القواد العسكريون ... ذلك أنْ لا شيء يَثبُت في الأرض ويُنبِت الثمار الصالحة الخالدة، غير البذرة الطيبة التي يُلقيها في نفوس البشر رجلٌ يحب الإنسانية كافةً ... هذا هو المجد الذي ليس بعدَه مجدٌ لإنسان!

– إنك امرأة ... ولا يُدهِشني قط من امرأةٍ أن تبخس قدر النصر الحربي!

– النصر الحقيقي هو لذلك الذي يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوةً ... ويُسعِدها ولو لحظةً ... إن كلمة نبي، أو ترنيمة شاعر، أو تغريدة موسيقي، لَأبقى على الدهر من صيحات الظَّفَر وطبول النصر في أكبر معركة حربية!

– عجبًا!

– فيمَ العجب؟ ... إن ذلك الذي يستند إلى قوة الله — وهو النبي والرسول — وذلك الذي يستند إلى قوة الفكر — وهو العالم والفنان — لَأبقى وأخلَدُ من ذلك الذي يستند إلى قوة الجيش!

شَرَدَ هتلر بخياله لحظة ... وقال كالمخاطِب نفسه: وا أسفاه! ... لطالما تُقْتُ إلى أن أكون نبيًّا!

– من أجل ذلك هاجمتَ الله والكنيسة؟!

– ولطالما تُقْتُ إلى العلم والفن!

– ولهذا نفيتَ العلماء والفنانين؟!

– عبقرية بلادي هي عبقرية عسكرية قبل كل شيء ... لم أفطن إلى ذلك يومَ قامت في نفسي تلك القوى الجائحة تدفعني أن أعمل شيئًا للتاريخ ... لا تُنكِري يا شهرزاد أن المعجزة تتَّخذ لون الأرض التي تظهر عليها، وأن العظيم يتغذَّى — ككل نبات — بعناصر التربة التي ينبت فيها! ... لا تحسبي عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لإبراز نبيٍّ من أنبياء الشرق.

– هذا صحيح ... ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته وعصره؛ لينشر تعاليمه التي تنفع الإنسانية كافةً ... هكذا فعل المسيح ومحمد؛ لقد كان كلٌّ منهما يُجاهِد وحده ضدَّ وطنه وزمانه، ليبذر فيهما المَثَل الأعلى الإنساني ... وقد اضطُهِدا وعُذِّبا في سبيل ذلك، وقد انتصرا آخِر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان ... ثِق أني لا أخدعك ... إن الخلود هو لَمن يعمل لخير الإنسانية كلِّها، ولرفعة الجنس البشري كلِّه ... لهذا كانت غلطتك الكبرى أنك أحببت جنسًا واحدًا، وكرهت بقية الأجناس! ... وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب!

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام «المباح» — المباح مؤقتًا بإذنٍ خاصٍّ من هتلر — وسكت الفوهرر، ولا يدري أحدٌ أكان سكوتُه لاقتناعه بحديث شهرزاد، أم للتفكير في طريقة التخلُّص من هذه المرأة الخَطِرة؟

حماري وموسوليني

قال لي حماري وهو يُحدِّق معي في أعمدة الصحف يومَ رَوَت خبر سجن «موسوليني» في قلعة جزيرة «بونزا»، قبل أن يهرب منها: تُرَى، كيف تتصوَّره وهو في سجنه؟!

فشَرَد ذهني لحظةً، ثم قلتُ كالمخاطِب لنفسي، وكأنِّي أُبصِر شريطًا متحركًا: أتصوَّره جالسًا «مُنتفخًا»، وقد دخل عليه ضابط من جنود الكارابينييري القائمين بحراسته ... فدار بينهما الحديث التالي:

الحارس: هل طلبتَني يا سيدي؟

موسوليني: أردت أن ألفت نظرك إلى أن الطعام هنا رديء.

الحارس: لقد نسوا يا سيدي — من غير شك — أن يرسلوا إلى هذه الجزيرة طُهَاتَك البارعين في قصر روما الفاخر!

موسوليني: لقد نبَّهتُك قبل الآن أن تكفَّ عن مخاطبتي بكلمة «سيدي» ... إني أُصِرُّ على مناداتي بلقب «الدوتشي»!

الحارس: ليس لدينا أوامر بذلك يا سيدي.

موسوليني: لديكم فقط أوامر بقتلي إذا حاولتُ الهرب؟!

الحارس: هو ذاك يا سيدي.

موسوليني: لو كنتَ قرأتَ تاريخ «نابليون»، لعلمتَ أنه كان يُصِرُّ هو الآخَر على أن يُخاطَب، وهو سجين في جزيرته، بلقب «الإمبراطور».

الحارس: وهل أجابه حارسه إلى ما طلب؟

موسوليني: كلُّ حارس ذو مروءة وذوق لا يرفض ذلك.

الحارس: أنا أيضًا لا أرفض أن أكون حارسًا ذا مروءة وذوق ... فلأمنحك إذن هذا اللقب ... في هذه الحجرة المغلقة ... من قلعةٍ نائيةٍ في جزيرة مقفرة ... أتتنازل وتتقبَّل مني هذا اللقب يا سيدي «الدوتشي»؟

موسوليني: ولماذا هذه الابتسامة على فمك؟

الحارس: تلك ابتسامةٌ لا أظنُّ من المروءة والذوق أن أُطلِعك على معناها!

موسوليني: آه ... حقًّا ... حقًّا ... هل لي أن أُلقِي عليك سؤالًا؟

الحارس: إني في خدمتك.

موسوليني: صارِحني بالحقيقة ... هل أنت وحدك الذي يسخر مني الآن؟!

الحارس: أظنُّ أني لستُ وحدي.

موسوليني: مَن غيرك؟

الحارس: كثيرون.

موسوليني: أكثر من عشرة أشخاص؟

الحارس: أكثر من عشرة ملايين.

موسوليني: عجبًا! ... من أيِّ دولة؟

الحارس: من شعبك نفسه.

موسوليني: ألا تراك مبالغًا في التقدير قليلًا؟!

الحارس: من غير شك إني مبالغ في إنقاص العدد؛ فإن أولئك الذين سمعوا خطبتك من الإيطاليين وحدهم يبلغ عددهم أكثر من ثلاثين مليونًا.

موسوليني: أي خطبة؟

الحارس: خطبتك الرائعة في ذلك الموقف الرائع، وأنت على ظهر مدفع ضخم تصيح قائلًا:

«ثمانية ملايين حربة تنتظر إشارتي بالهجوم ... البحر الأبيض بحرنا ... «مارنسترام ... مارنسترام».»

موسوليني: وا أسفاه!

الحارس: أليس لهذه الملايين الآن بعض الحق في ابتسامة صغيرة؟!

موسوليني: «مارنسترام!»

الحارس: نعم ... ها هو ذا «مارنسترام» ... بحرنا ... بحرك ... مُدَّ إليه يدَيك من خلال قضبان سجنك الصغير.

موسوليني: لقد أردتُ حقًّا أن أمنحكم هذا البحر بهاتَين اليدَين، فوضعتم فيهما الأغلال!

الحارس: من سوء حظنا أننا فعلنا ذلك متأخرين! ... لقد تبيَّن لنا — بعد فوات الأوان — أنك أعطيتنا حقيقةً بحرًا ... ولكنه بحر من الدماء!

موسوليني: هذا قولكم أنتم يا أعدائي ... ولكن الشعب الإيطالي كله يهتف الآن.

الحارس: يهتف الآن بسقوطك في كل مكان.

موسوليني: أنت كاذب.

الحارس: لقد سألتَني الصراحة ... ولكنك لم تزل تُبغِضها وتخشاها ... إن أذنك التي تعوَّدت الإصغاء إلى رياء الخائفين، وزُلفَى الطامعين، وتمويه المخدوعين، ما زال يَذعَرها رنين الصدق والحقيقة.

موسوليني: أهذا معقولٌ أن يهتف الشعب الإيطالي بسقوطي؟!

الحارس: المعقول هو أن يفعل ذلك الآن.

موسوليني: كيف يستطيع ذلك؟!

الحارس: الأمر بسيط: ما دامت يدك القابضة قد أُقصيت عن غطاء الإناء ... فإن البخار المكتوم يستطيع الانطلاق حرًّا في الفضاء!

موسوليني: أَوَيَنسى الشعب ما صنعتُ له؟

الحارس: إذا أعطيتَ شعبك كل شيء، وسلبتَه حريته، فإنك لم تُعطِه شيئًا.

موسوليني: أينسى صوتي الذي هزَّ مشاعره؟

الحارس: كلا ... هذا لا ينساه ... إن صوتك حقًّا كان مؤثرًا ... وخُطَبك كانت رائعة ... وحركاتك ووقفاتك كانت بارعة ... وهل ينسى الشعب صوت «كاروزو»، أو تمثيل «زاكوني»؟!

موسوليني: إني لم أكن ممثلًا يا هذا!

الحارس: إنك كنت ممثلًا أتقن دوره، حتى نسي نفسه وأنسى الجماهير أنفسها! ... إنك أعظم ممثل أنجبته عبقرية إيطاليا الفنية ... مأساة حياتك وحياة إيطاليا الحاضرة هي أنك لم تتخيَّر الظهور من بادئ الأمر على مسرح التمثيل، وآثرتَ اللعب على مسرح السياسة ... لقد اتَّبعتَ بغريزتك وطبيعتك عين الطرائق الفنية المسرحية، فبدأت بدراسة «شخصية» من الشخصيات كانت هي — لسوء الحظ، أو لسوء الاختيار — شخصية «نابليون»! ... لستُ أدري لماذا تجذب هذه الشخصية دائمًا هواة التمثيل في كل ملعب؟! ...

درستَها أنت فيمن درسها ... وتشبَّعتَ بها حتى جاوزت التمثيل إلى التأليف ... فوضعتَ قصتك التمثيلية عن «نابليون والمائة يوم». وإني لأتساءل عمَّا منعك من تقمُّص «نابليون» بنفسك في روايتك على المسرح الخشبي؟! ... لعل المانع هو اشتغالك فعلًا بتمثيلها المتقَن على المسرح الآخَر ... كل هذا كان يُقبل منك لو أنك مسحتَ الأصباغ عن وجهك آخِر النهار، وخلعتَ الأثواب وأطفأتَ الأنوار، وصارحتَ جمهورك بقولك له «إن هذا كان تمثيلًا!» ... لأن شخصيات التاريخ لا تتكرَّر، وأن أطماع الطغاة تُروَى كالأساطير، وأن الزمن قد تغيَّر، وأن الشعوب اليوم لا ينبغي لها أن تجري وراء أوهام السيطرة الكاذبة والتسلُّط الزائف ... بل تسعى إلى حريتها ورفاهيتها في جوٍّ من الوئام والتعاون مع جيرانها من بقية الأمم والأجناس ... لو أنك نبذتَ من أول الأمر فكرة التقليد والتمثيل، وشيَّدتَ عملك على أساس جديد من روح العصر وفلسفة الإنسانية النافعة للبشر ... لكنتَ ارتفعتَ في نظر التاريخ عن مُجرَّد ممثِّل للأدوار القديمة إلى مُصلح إنساني للعالم الحديث.

موسوليني: يُدهشني أن تتكلَّم هكذا أيها الضابط! ... أرى أن اختيارهم إياك حارسًا لي لم يأتِ عفوًا!

الحارس: أرجو، على كل حال، أن يكون في حديثي بعض الفائدة.

موسوليني: أيُّ فائدة؟! ... ما دامت ها هنا نهايتي!

الحارس: هَبْ أنك عُدتَ إلى الحياة ... إلى حياة العمل من جديد ... ماذا تصنع؟

موسوليني: أصنع كل ما تريد ... ولكن كيف الخروج من هنا؟

الحارس: حقًّا ... الخروج من هنا هو المستحيل بعينه ... فهذه الجزيرة الصغيرة محروسة، كما ترى، بالسفن الحربية من كل الجهات.

موسوليني: إني مع ذلك لم أفقد الأمل بعد ... إن «نابليون» سُجن هو الآخَر أولَ مرةٍ في جزيرة «إلبا» وهي محروسة، واستطاع مع ذلك الهرب ... لا بد من هربي أنا أيضًا هذه المرة كما هرب.

الحارس: يا للأسف! ... إنك أيُّها المُمثِّل لا تستطيع الخروج قيد شعرة عن نطاق «الدور» الذي تُقلِّده وتُحاكِيه.

موسوليني: ولكني لم أَنْسَ ما قلتَ لي ... وسأعمل ما تريد.

الحارس: لن تستطيع ... ليس في مقدورك أنت أن تخلق شخصيةً مستقلةً عن شخصيات التاريخ ... لا بد لمثلك من نموذجٍ يسير عليه ... وثوب بطولةٍ زائفٍ يرتديه ... أنت مُمثِّلٌ وكفى!

موسوليني: سوف ترى ما أصنع إذا كُتبت لي العودة إلى العمل.
الحارس: ماذا أنت صانع؟ ... لا شيء غير الاستمرار في لعب دورك حتى نزول الستار!
موسوليني: أين؟
الحارس: صدقت في هذا ... أين؟ ... لا بد لك من مسرح ... فإيطاليا اليوم لا تصلح للعبك المعروف ... إن الجماهير سوف تستقبلك بالصفير المُزري أو الإهمال المُخجِل ... ولكنَّ لك شريكًا ما زال يلعب على مسرحه ... مَن يدري ... ربما رضي أن يعطيك دورًا صغيرًا إلى جانبه.

(أصوات صياح في الخارج وطلقات نارية.)

موسوليني: ما هذا؟ ... ما هذا؟
الحارس: مكانك ولا تتحرَّك!
جندي (يدخل مسرعًا)**:** هبط النازي بالمظلات!

(ضابط نازي يقتحم الحجرة بمسدسه.)

الحارس: لا داعي لإطلاق النار.
النازي (لموسوليني)**:** أيها الدوتشي!
موسوليني (يبكي وينتحب من الفرح)**:** إني ... إني كنت شاعرًا بذلك.
النازي: لقد أمرني الفوهرر أن أضعك تحت حمايتي!
موسوليني: إني ... إني كنت واثقًا أن الفوهرر لن ينساني.
الجندي (همسًا)**:** إنه يهرب ولم نَرمِه بالرصاص؟
الحارس (للجندي وهو يتأمَّل منظر موسوليني)**:** أوَيُريدون منا أن نقتل هذا المخلوق المسكين؟!
الجندي: والأوامر التي لدينا؟!
الحارس: سيُدرِكون فيما بعد أن هذا الرجل لا ينبغي أن يموت موتة جندي؛ بل مِيتَة مُهرِّج مَنسِيٍّ فقد الهتاف والتصفيق والدَّوي.

حماري ومؤتمر الصلح

قال لي حماري مرةً: صِفْ لي مؤتمر الصلح لهذه الحرب.

فقلت له، وقد راقني سؤاله، ووددتُ لو استطعت الجواب: كيف أَصِفُه؟ ... إنه لم ينعقد بعدُ بالطبع هذا المؤتمر، ولا يدري آدمي متى ينعقد ... إذا شئتَ، فلنلجأ إلى عين الخيال، نرى بها ما يجري فيه وما يُفضِي إليه.

وعين الخيال هذه كعين الماء في الصحراء، تستمدُّ مادَّتها من أغوار الرمال ... رمال الزمن والماضي ... لذلك أتصوَّر أن يُعقَد مؤتمر الصلح القادم في «فرساي» مرة أخرى، وفي قاعة «المرايا» الشهيرة بالذات ... ولكن المبادئ التي ستُطرَح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه ... والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوَضة، سوف يُنتخَبون طبقًا لفكرة خاصة ... وفي الحق: إنه عقب انتهاء الحرب، سيشتدُّ الرأي العام في كافة الشعوب المحارِبة حول هذا السؤال: مَن الذي يصنع السلام؟ ... أهُم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر؟ ... ألا يُخشَى أن يكون العمل المُنهِك والجهد المُضني الذي قام به هؤلاء الأبطال يجعلهم في حاجةٍ أن ينالوا قسطهم من الراحة، فيتولَّى عبءَ الجهاد الجديد رجالٌ جُدد، ممَّن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل الغد، ويُعِدُّون العُدَّة في صمتٍ لبناء صرح السلام العالمي؟! ... ثم ألا يُخشَى من الرجال المنتصرين، إذا تسلَّموا قيادة الصلح، أن تُنسيهم حرارة الظفَر أنفسهم، فيحسبون أن واجبهم على مائدة السلم أن يُحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى، التي من أجلها بُذلت الأرواح وسُفكت الدماء، وهي: «التعاون الدولي على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جمعاء»؟! ... كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفِد الديموقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالًا مشبعين بهذه الفكرة العُليا ... فمثلًا قد توفِد حكومة تشرشل رجلًا مثل «بيفردج»، وحكومة روزفلت رجلًا مثل «ديوي»، وحكومة ستالين رجلًا مثل «لتفينوف»، وحكومة برلين رجلًا مثل

«أوتوشتراسر» ... إلخ، وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح. ولَمَّا كانت مصر مدعوَّة بطبيعة الحال إلى تبوُّؤ مركزها من هذه المائدة، فقد حُقَّ لك يا حماري أن تسأل عمَّن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمَّة الخطيرة.

اسمح لخيالي أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة، فيتصوَّر أن مندوب مصر هو العبد الفقير «كاتب هذه السطور» ... ولا تسأل عن السبب، بل تعالَ معي نشاهد ما الذي سيحدث:

لا شك أن خبر تعييني سيُقابَل — كعادتنا في مصر — بالهجوم العنيف من الحُسَّاد، فيُمعِنون في تجريدي لا من الصفات المطلوبة في عضو المؤتمر وحدها، بل من كافة الصفات الآدمية التي يتمتع بها كلُّ مَن خلقه الله من ماء وتراب.

فيرد على ذلك الأنصار بما يعرفونه عني من الصفات الحسنة، مبالغين فيها ... ويأتي يوم السفر، فنحشد الجموع في مطار ألماظة؛ حيث تقرَّر أن أذهب طائرًا إلى «فرساي» ... ويعلو هتاف الجماهير، مُذكِّرًا إياي بمطالب البلاد ... فأُلوِّح إليهم بالمحفظة التي تحوي الوثائق الرسمية والمُذكِّرات التفسيرية التي عليها تقوم المفاوضات، ثم تتحرك بي الطائرة مرتفعةً في الجو، وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزينةً بالأعلام الخضراء، تُودِّعني حتى شاطئ البحر، ثم حطَّت الطائرات في الدخيلة، وعبرت طائرتي وحدها إلى أوروبا، وأنا داخلها أفكر في سرِّ اختياري للمؤتمر وماذا أنا قائل فيه؟! ... وأنا لم أدرس بعدُ أية وثيقة من الوثائق التي بالمحفظة؛ فقد ضاع وقتي في مصر بين مطالعة شتائم الحُسَّاد في النهار، وأقوال الأنصار في المساء.

لكن لماذا لا أنتهز فرصة هذه الخلوة في الطائرة وأُطالِع هذه الأوراق الهامة؟ ... ومددت يدي نحوها ولكن ذهني شَرَد ... وتلك — ولا شك — صفة فات حُسَّادي أن يذكروها ضمن ما ذكروه عني من صفات ... شرد ذهني في أمر وصولي إلى فرنسا ... وأين يكون مُقامي؟ ... أفي فندق في فرساي مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح؟ ... ولماذا لا أنزل — كما يحلو لي — في «مونمارتر» مثلًا ... بذلك الفندق الذي نزلتُه منذ نحو عشرين عامًا ولي فيه ذكريات؟ ... وجعلت أستعرض في رأسي ذكرياتي يوم كنت أقطن أمام مَرقص «الكوليزيوم» المشهور، وأمضي ليلي أكتب شعرًا فرنسيًّا منثورًا في الحانة المجاورة للهى «الطاحونة الحمراء» وأنا أحتسي بيرة ستراسبورج، وآكل «الكرنب بالسجق»، وأرمق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولي ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن: «يا عرائس الشعر، ابتعدن عني ساعة الأكل؛ فما في جيبي غير فرنكات معدودات ثمن طبقي وحقِّ جمالكن!»

في اليوم التالي لوصول طائرتي إلى فرنسا، افتُتحت أول جلسة من جلسات مؤتمر السلام في قصر فرساي، بحديقته الخضراء ذات النافورات العجيبة، ينبثق منها الماء في أشكال وألوان، كأنه ماسة مُلقاة فوق العشب تشع بالأضواء ... واجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة في قاعة «المرايا» ... وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه وجعل يُخرِج منها الأوراق ... واتخذتُ مكاني بالطبع بين الجالسين، وأردت أن أصنع مثل ما ... وإذا أنا لدهشتي ومصيبتي وطامَّتي أتذكَّر أني نسيت محفظة وثائقي بالطائرة ... والنسيان — قاتله الله — صفة أخرى من صفاتي الممتازة! ما العمل الآن وقد ضيَّعت — أول ما ضيعت — المحفظة التي فيها مطالب بلادي؟!

لم تَدُم ورطتي طويلًا؛ فقد عزَّيتُ نفسي بقولي: إن المؤتمر في يومه الأول لن يبحث، على أي حال، في المسألة المصرية ... ومن هنا إلى أن يجيء دورها، يكون الله — تعالى — قد فتح عليَّ بالحل الموفق السعيد.

وغَرِقت في مقعدي الوثير مطمئنًا، أستمع إلى المناقشات التمهيدية الأولى بين «بيفردج» و«ديوي» و«لتفينوف» و«شانج كاي شيك»، وكلَّما أوغلوا في المناقشة فَتَرَت قوتي على الإصغاء، وتهيَّأ ذهني، كالعادة، إلى الانصراف والانطلاق في أجواء أخرى ... وبالفعل ... لم يَمْضِ غير قليل حتى ألفَيتُ نفسي منهمكًا في حصر عدد المرايا التي في القاعة، وملاحظة حركات مُمثِّل الصين وهي تنعكس على كل مرآة ... ثم طفقت أقول في نفسي: ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوي؛ فكثرة المرايا تُسِرُّ المرأة وتملؤها زَهْوًا وخُيَلاء ... لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضًا في قاعة المرايا؟ ... أخشى أن يكون هذا سببًا من أسباب الزهو والخيلاء الذي كاد يذهب برءوس بعض ممثلي معاهدة «فرساي» السابقة!

مضيت في هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجري حولي ... وإذا أنا أَتَنَبَّه على صوت المجتمعين يُقرِّرون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأي الأمم الصغيرة ... واتجهت العيون نحوي ... وأُعطِي الكلام لمندوب مصر! ... يا للكارثة! جاءك الموت يا تارك «المحفظة»! وأصبحت في موقف لا يحسدني عليه حُسَّاد ولا عُذَّال ... أين محفظتي؟ ... أين محفظتي؟ ... أين ورقي؟ ... ماذا أصنع أيُّها الناس؟ ... وماذا أقول؟ ... ولكني وقفت على كل حال رغمًا عني، وقد مَدَّني اليأس والحرج باتِّقاد ذهن ليس من شيمتي، فانطلق لساني يقول: أيُّها السادة الأجلَّاء ... ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم كبيرة، إنما نحن أمة واحدة، وعالم واحد، يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء ... عالم واحد وحريات أربع. أليس هذا هو الدستور الجديد لِدُنيانا الجديدة كما جئنا لنُشيِّد بناءها؟

ولا ريب أننا جميعًا متفقون على تلك المبادئ التي أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد … إنها كما تعلمون: حرية القول والرأي … حرية العبادة … والتحرر من العَوَز والفقر … والتحرر من الظلم والاستعباد.

إذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم، فقد استغنت بها عن أي مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر المُوقَّر … إلا ما تعلَّق بالتفاصيل ووسائل التنفيذ؛ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التي تُعرَض على هذه المائدة … على أني حتى في هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التي تتعلق بكل دولة على انفراد، أرى رأيًا، وأقترح اقتراحًا أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر … ذلك الاقتراح هو: ألَّا يتولى الدفاعَ عن مطالب أمةٍ مندوبُ هذه الأمة، بل مندوب أمة أخرى؛ وذلك منعًا من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الإنسانية والعالمية … فمثلًا يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا، مندوب الصين وعلى العكس … وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب روسيا … وفرنسا عن ألمانيا … ومصر عن إنجلترا … وهكذا.

وسَكَتُّ لحظةً أمام نظرات مستر «بيفردج»، وهو يفحصني بعينيه متعجبًا … ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحَسَن فارتسم التفاؤل على شفتَيه في صورة ابتسامة رِضًا، شجَّعتني وشجَّعت الأعضاء فهتفوا معًا موافقين على هذا الاقتراح … ونهض «ديوي» فصافح «شانج كاي شيك»، وقام «سراج أوغلو» فسَلَّم على «لتفينوف»، وانحنى «شتراسر» يُحيِّي «ديجول». ودعاني المؤتمر إلى المُضِيِّ في الكلام، فقلت: أرجو أن يكون مستر «بيفردج» مطمئنًا إلى وضع بلاده بين يدي، كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادي في يده، وليسمح لي أن أوجِّه التفاتَه إلى مشاكلنا الاجتماعية التي تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته … فرَفْعُ مستوى الفلاحين يتطلَّب مشروعًا ضخمًا يماثل مشروع التأمين الاجتماعي بالنسبة إلى إنجلترا، وتوطيد مركزنا الاقتصادي، وزيادة الثروة الأهلية، والمحافظة على مستواها، سواء بإدخال وسائل إنتاج جديدة أو بتحسين الإنتاج الزراعي والصناعي القائم … كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمَّتك العالية. أما مسائلنا الخارجية فإنها ستُوضَع — ولا ريب — على الأسس العامة التي تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول؛ فإنه تحت ضوء هذا المبدأ: «عالم واحد، وحريات أربع»، سوف تُحَل كثير من المشاكل. وإن في صيحة الديموقراطيات المدويَّة بأن «في الإمكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسية إذا قُوبِلت وَوُوجِهَت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخُلُقية، ويُعززها بوليس مشترك، يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التي تُمكِّنها من

الاعتداء على أية دولة مجاورة لها في أي مكان في العالم ... إلخ» ... هذه الصيحة ستمحو — ولا شك — كل الصعوبات التي وقفت في سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة ... هذا فيما يختص ببلادي، وقد وضعتُه بين يديك. أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات، وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات ... وليس لي إلا أن أَمُدَّ يدي وأقول لك يا مستر «بيفردج» سلِّمني محفظتك!

حماري وحزبه

دار بيني وبين حماري يومًا هذا الحوار:

الحمار: أريد أن أُلقي عليك سؤالًا شخصيًّا ... أتأذن لي؟
الحكيم: العفو ... تفضل!
الحمار: ألم تُفكِّر في الانضمام إلى حزب من الأحزاب؟
الحكيم: لماذا؟ ... القهوة التي أجلس فيها الآن مريحة جدًّا وتُعجِبني للغاية ... ولا أريد بها بديلًا.
الحمار: خطرت لي فكرة جديدة طريفة.
الحكيم: خيرًا.
الحمار: ما رأيك لو ألَّفنا نحن حزبًا؟
الحكيم: سياسيًّا؟
الحمار: عامِلًا ... إنك تُعلن إليَّ في كل مناسبة إعجابك بي وبفصيلتي من الحمير؛ لقوة مِراسنا، وطول صبرنا، وشدَّة جَلَدنا على العمل ... فما قولك لو شَرَعنا في انتخاب نحو ثلاثين حمارًا من الطراز الأول، نُؤلِّف منها الحزب؟
الحكيم: حزب من الحمير؟
الحمار: ولِمَ لا؟
الحكيم: أوتظن أنك أحدثت جديدًا في السياسة؟
الحمار: على كل حال، الجديد هو رئيس الحزب الذي يلون الأعضاء بلونه.
الحكيم: ومَن تُرشِّح للرياسة؟
الحمار: أُرشِّحك أنت بالطبع.

الحكيم: أتظن أنه سيوجَد انسجام بيني وبين الأعضاء؟

الحمار: لا شك عندي في ذلك ... إنك خير مَن ينسجم مع هؤلاء الأعضاء.

الحكيم: أهذا مَدْحٌ لي أم ذم؟! ... ما علينا ... أنا أتشرَّف بإسناد هذه الرياسة إلى شخصي المتواضع، ولكني لا يسعني إلا الاعتذار ... فالمسئولية جسيمة ... وأنا أُفضِّل أن أكون عضوًا بسيطًا في هذا الحزب ... من رأيي ترشيحك أنت للرياسة.

الحمار: أنا لا أصلح.

الحكيم: لِمَ لا؟ ... الانسجام مفقود بينك وبين الحمير؟

الحمار: بالضبط.

الحكيم: وغير مفقود بيني وبين «حضراتهم»؟!

الحمار: بالضبط؛ لأن مسألة الرياسة — كما لا يخفى — دقيقة جدًّا ... تُولِّد دائمًا مشكلات وعقبات وخُصومات ... وإنك لَتعلم أن كل مشروع نافع لا يُفسِده غيرُ التنافس على الرياسة ... وكل اتفاق لا يقف في سبيله إلا الخلاف على الرياسة ... فإذا أردت نجاحًا لمشروعنا هذا، فليكن الرئيس من الخارج.

الحكيم: فهمت ... والمبادئ؟

الحمار: ليس الآن وقت البحث فيها ... المهم هو تشكيل الحزب، وانتخاب الرئيس، واختيار المكان المناسب أو النادي الملائم.

الحكيم: عجبًا ... حتى أنت يا ...

الحمار: ألست معي؟

الحكيم: أبدًا ... أبدًا ... ما الذي صنعناه إذن؟

الحمار: ماذا كنت تريد أن نصنع أكثر من ذلك؟

الحكيم: أشخاص، ومكان، ونادٍ ... إني يا سيدي — كما تعلم — لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج ... ولستُ ساحر الحديث. ولا ظريف المجلس، ولا أحب أن أكون من ذوي الجاه ... كلُّ ما عندي قلم لا أرضى أن أُسخِّره في هدم الأشخاص لُمجرَّد الهدم، ولا أن أستخدمه في بناء أشخاص طمعًا في الغُنْم ... إنما هو خادم بالمجان، لأي فكرة كبيرة أدافع عنها ... تلك هي كل مهمتي وكل مطلبي، والباقي لا وزن له عندي.

الحمار: ما هذا الكلام؟ ... تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة ولا تريد الهدم، ولا الغُنْم، ولا المال، ولا الجاه، ولا ... إلخ ... تريد أن نُعلن ذلك حتى يقولوا عنا: إنه حقيقةً حزب حمير؟!

الحكيم: وا أسفاه! ... كنت أُحسِن الظن بآرائك.

الحمار: آرائي كلها صائبة ... ما من مرة أوحيتُ إليك برأي خاطئ ... أنسيت يوم جعلنا نُحصي ما نشرتَ من أفكار، فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسي أنا ... وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت عن رأسك أنت؟!

الحكيم: هس ... لئلا يسمعك أحد.

الحمار: لا تَخَف ... إني أخفض صوتي ... ولكن اعترف أن آرائي التي أوحيتُ بها إليك ثبت صلاحها في كل حين.

الحكيم: لا أذكر أنه ثبت صلاح أي رأيٍ من آرائنا — أي آرائك — اضرب لي مثلًا واحدًا.

الحمار: ما أضعف ذاكرتك! ... خذ مثلًا رأيي الأخير الخاص بتعدُّد الزوجات.

الحكيم: يا ساتر! ... ألم ترَ كيف قامت قيامة النساء في كل مكان على هذا الرأي ... وقُلنَ إنه لا يَصدر حقًّا إلا عن حمار؟!

الحمار: الحمد لله! ... أرأيت؟ ... إن آرائي لها طابع خاص لا يمكن أن يَخفى.

الحكيم: لَهْفي على ذلك الفيلسوف الإنجليزي الذي قرأت خبره أخيرًا في الصحف!

الحمار: حقًّا ... ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه؟ ... إنه أعلن أن عدد النساء في إنجلترا يزيد مليونَين على عدد الرجال ... ونادى هو الآخر بضرورة التعدُّد، وأبدى استعداده هو بالذات للاقتِران بست زوجات!

الحكيم: الحق أن رأي هذا الإنجليزي أدهشني، وأعاد إلى نفسي بعض الثقة في حصافة رأيك ورجاحة عقلك.

الحمار: مَن يدري؟ ... ربما كان لي ابن عم نشيط نَزَح إلى بلاد الإنجليز هو الذي أوحى بهذا الرأي إلى ذلك الفيلسوف؟!

الحكيم: لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش في جو إنجلترا.

الحمار: وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم؟!

الحكيم: لست أدري.

الحمار: يَسرُّني، على كل حال، أن نكون متفقَين في الرأي، أنا وهذا الفيلسوف الإنجليزي.

الحكيم: وأنا يُدهشني أني لم أسمع حتى الآن أن نساء إنجلترا أَقَمْنَ القيامة على زميلك الفيلسوف هذا ... المُطالِب بست زوجات!

الحمار: إني لم أذهب إلى إنجلترا ولا أعرف عنها شيئًا ... ولكن ربما كانت النساء هناك غير مُثقَّفات.

الحكيم: غير مُثقَّفات؟! ... نساء إنجلترا ... وفيهن أعضاء في البرلمان؟!

الحمار: عجبًا ... إذن لماذا لم يَنهضْنَ على الأقل في البرلمان صائحات ضد هذا الرجل؟!

الحكيم: أظنُّ أن النساء هناك لا يَصِحْنَ لأنهنَّ يَعملن.

الحمار: أَوَتَرَكْنَ إذن زميلي الفيلسوف يقول ما يريد؟!

الحكيم: طبعًا ... وهل كنتَ تنتظر أن يَضَعْنَ في فمه اللجام، كما تَتمنَّى نساؤنا أن يَفْعَلْنَ بِك وبي؟

الحمار: أريد أن أسألك سؤالًا مُحيِّرًا ... بماذا تُفسِّر سَعَة صدر المرأة الإنجليزية مثلًا، وضيق صدر المرأة المصرية؟ ... ما السر في أن نساء إنجلترا لم يَغضبْن عندما قال ذلك الكاتب إنه يريد التزوج بست زوجات، وغَضِب نساؤنا عندما قلنا بزواج أربع فقط؟ ... هل المصرية تُقدِّس حقوق المرأة، وتحرص على حريتها أكثر من أختها الإنجليزية؟

الحكيم: سَعَة الصدر وضيقُه ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها ... ولكنها ظاهرة شاملة، تُلاحَظ في حياة كل شعب، تبعًا لدرجة عراقته في الحرية والحضارة والقوة؛ فالشعوب الحرة القوية هي في الغالب أوسع الشعوب صدرًا وعقلًا ... إن مسألة الزي الأوروبي مثلًا، أو لباس الرأس، لم تُصادف في اليابان أيَّ صعوبة أو إشكال ... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة، والوطنية اليابانية العريقة، لم نسمع يابانيًّا ذكر كلمة «القومية» أو «الوطنية» وهو يَرتدي الزي الأوروبي؛ لأنه لم يَخطُر قط بباله وهو يَلبس «القُبعة» أنه سَيَخلع «قوميته» ... أما الشعوب الضعيفة فتتوهَّم دائمًا أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستُخلَع منها وتَذهب عنها بلفظٍ أو بكلمةٍ أو برداء؛ فهي تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات.

الحمار: لا بد لهذا من علاج ... ما علاج ذلك؟

الحكيم: حرية الكلام حتى يَألف الناس الألفاظ ولا يَرتاعوا من الكلمات ... وحرية الفكر والعمل والتصرفات حتى يَعتاد كل فرد احترام رأي الآخر وعمله وتصرُّفه، وألا يكون مُضطرًّا إلى اتباعه ... الحرية هي المنبع الصافي لسعة الصدر والعقل ... الحرية هي الطريق نحو القوة ... الحرية هي انتصار الإنسان على نفسه وعلى كل سخافة إنسانية ... الحرية هي دواء كل شيء.

الحمار: إذن فمِن واجبنا أن نتكلم.

الحكيم: دائمًا ... حتى يَسقُط القلم من بين أصابعنا الميتة.

الحمار: لا تَقُل إذن إن آرائي دائمًا خرقاء!

الحكيم: إن الخُرْق أو الهراء الذي يخرج من أفواهنا فيه أيضًا بعض النفع للناس ... إنه يجعلهم يبتسمون سخريةً منا على الأقل ... وإذا استطاعوا أن يَسخروا في ابتسامةٍ جميلةٍ لا يَعلُوها زَبَد الغضب، فقد ساروا خطوة نحو الحرية.

الحمار: كنت تريد لحزبنا مبادئ ... ها هو ذا مبدأ عظيم!

الحكيم: الحرية الاجتماعية؟

الحمار: نعم ... ما قولك؟

الحكيم: لا مانع عندي الآن من تأليف الحزب ... اجمع الحمير!

الحمار: هنا صعوبة بَدَت لي الآن!

الحكيم: ما هي؟

الحمار: هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذي يعترف بأنه حمار؟

الحكيم: إذن لم يَأنِ الأوان لتأليف هذا الحزب.

حماري والذهب

رأيت حماري ذات يوم مُفكِّرًا مهمومًا ... فجلست بجواره صامتًا مُحترمًا ما هو فيه ... إلى أن أحسَّ وجودي ... فرفع رأسه نحوي وجرى بيننا هذا الحديث:

الحمار: وأخيرًا؟

الحكيم: وأخيرًا ماذا؟

الحمار: مستقبلي ... ألم تفكر في مستقبلي؟

الحكيم: عجبًا! ... لأول مرة أسمع حمارًا يتحدث في مستقبله!

الحمار: ما وجه العجب؟ ... ألست مخلوقًا حيًّا يعيش خاضعًا لقانون الزمن؟ ... أليس لي ماضٍ وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات؟! ... لقد عشت معك حتى الآن عاريًا ... لا سَرْج ذهب ... ولا «رَشْمَة» فضة ... ولا بَرْذَعة مرصَّعة ... ولا ...

الحكيم: شيء جميل! ... أهذا ما يَشغلك الآن؟!

الحمار: هذا ما يَشغل اليوم كل إنسان ... إن الناس كلها من حولنا تفكر في الذهب ... وتعيش للذهب ... وتتنفس بالذهب ... وأنا وأنت قاعدان ننظر إلى القوم من عَلٍ، متدثِّرَين في أسمال أفكارنا وأطمار فلسفتنا.

الحكيم: اسمع أيها الحمار ... فرغنا من آرائك السياسية ومِن مبادئ حزب الحمير الذي أشرتَ بتأليفه ... واليوم تريد أن تفتح لي باب أطماع جديدة؟!

الحمار: إني أفتح لك باب أعمال ... وما دمت أنا الذي يُفكر لك ...

الحكيم: فكِّر لي في شيء نافع من فضلك!

الحمار: أنفع من الذهب؟ ... يا للعجب! ... هنالك لحظات أتساءل فيها: أأنا الحمار أم ...

الحكيم: الزم أدبك ... لقد بدأت أضيق بك ذرعًا ... وأشعر أننا أصبحنا غير متفقَين في كثير من الأفكار والمشارب والميول.

الحمار: بل أنا الذي ضِقتُ وضَجِرت و«غلبت»!

الحكيم: فلنفترق إذن! ... ما الذي يُرغمنا على هذه الحياة المشتركة؟ ... وعلى هذه الصحبة التي لا أجني منها غير سوء السمعة! ... اذهب إذا شئت، وابحث لك عن صاحب من ذوي المال — وما أكثرهم اليوم — يُغطي عُرْيَك المزعوم بالذهب والفضة. وسترى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقًّا وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين؟!

الحمار: وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عاري الظهر؟!

الحكيم: بالطبع ... لو كان لك قلب يعرف حرارة الإيمان.

الحمار: يا لهذه الكلمات! ... إنك تكسوني بالكلمات وتَغذُّوني بالكلمات ... ولا أجد شيئًا عندك غير كلمات ...

الحكيم: ولن تَجد عندي شيئًا غيرها.

الحمار: مِن سوء حظي!

الحكيم: حقًّا ... ربما كان ذلك من سوء حظك؛ لأنك حمار.

الحمار: الزم أدبك ... يكفي أني تحمَّلت عِشرتك طول هذا الزمن، وأنت لا يتحمَّلك أحد ... ولكن آن الأوان أن أتركك لوحدتك ... لتأكل وتَشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك.

الحكيم: اسمع ... إني لا أُطيق أحدًا يُحقِّر الأفكار والكلمات! ... إن الكلمات هي التي شيَّدت العالم ... إن محمدًا لم يَنشر الإسلام بالذهب، بل بالكلمات ... وإن عيسى لم يُنشئ المسيحية بالمال، بل بالكلمات ... الكلمات الصادقة والأفكار العالية، والمبادئ العظيمة هي وحدها التي قادت الإنسان في كل أطوار وجوده، وبَنَت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها ... ما من حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أولَ أمرها على شيء غير المبادئ والكلمات ... وعندما يظهر الذهب آخِر الأمر ببريقه ورنينه، فاعلم أنَّ أوان الانهيار قد آن ... وأن هذا البريق سوف يُذيب المبادئ بأشعَّته الساحرة ... وأن هذا الرنين سوف يُصِمُّ الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات.

الحمار: تريد من ذلك أن تقول إن الذهب عدو المبادئ؟

الحكيم: بلا شك؛ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ ... مبدأ خَطِر طاغٍ مُتألِّه ... يُنسي الناس كل المبادئ الأخرى الحقيقية السامية النبيلة ... انظر إلى مُجتمعنا اليوم وقُل لي ما هو المبدأ الغالب المُسيطر على كل النفوس ... لقد قُلتَها أنت نفسك الساعة: إنه الذهب ...

لقد تَحكَّم حتى أصبح هو المقياس لِقِيَم الرجال ... ألا تسمع أن كل رجل كفء يَتباهى بأن دَخله من الشركات كذا ألف؟! ... فإذا طُلِب لواجب قومي وازَنَ في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالي هناك ... وجاراه المجتمع في حِسابِه المادي صائحًا: «لا مصلحة لفلان في أداء هذا العمل؛ لأنه سيَخسر بعض موارده من كيت وكيت» ... أما أن يُقام وزن للواجب المعنوي في ذاته، فهو أمر لم يَعُد في بال أحد ... المعنويات والمُثُل العليا فقدت قيمتها في سوق الذهب؛ حتى الأطباء نَسُوا أحيانًا واجبهم الحقيقي، فأصبح أغلبهم صيارف نقود، يفخر كل منهم بدخله السنوي، ولا يفخر بعمله الإنساني ... والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة في ميدان المال ... فإذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع من الفور عمَّا تملك العروس؛ لأن هذا هو المبدأ الذي تقوم عليه الآن هذه الشركة المقدسة! ... ورجال العلم تركوا علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات، فلن تجد في بلادنا عالمًا مُنكبًّا على عمله تحت «مكرسكوب» ليل نهار لِيَستكشف جديدًا دون أن يكون له مَطْمَع غير أفكاره العلمية ونجاحها، وخدمة الإنسانية لذاتها؛ لأن هذه الأفكار والمبادئ ذابت في جو هذا المجتمع الذهبي، وانصهَرَت هذه الكلمات من جديد في قالب من ذهب ... فإذا الناس يَنقلبون تُجَّارًا ... كل فرد في الأمة يريد أن يكون تاجرًا، بل إن لكل شخص اليوم عملَين: التجارة وعمل آخر ... كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر ... لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقُلوبهم إلى حدٍّ أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم، فغدا للناس قاموس جديد، كل كلماته: الربح، الربح، الربح ... والمال، المال، المال ... والثراء، الثراء، الثراء.

الحمار: إذا كان هذا هو قانون العصر، فلماذا تريد مني أن أخرج على القانون؟ ... أنا كائن عصري ... من واجبي أن أنضوي تحت لواء «المثل الأعلى» المُسيطر في زماني ... وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بِدْعَتُها من عصرنا العملي ... فأنا أخلع عن نفسي تلك البِدَع القديمة.

الحكيم: أيُّها الحمار العصري ... إن الأفكار والمبادئ ليست من البِدَع القديمة في كافة الشعوب ... انظر حولك تجد شعوبًا لم تزل تبذُل دماءها سَخيَّةً من أجل أفكار ومبادئ ... ما هو الدافع الذي يَدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر إلى الجود بأرواحه ودمائه؟ ... أهنالك دافع آخر غير بِضع كلمات؟! ... نعم، بِضع كلمات آمن بها فدفع فيها دمه الغالي ... كلا، إن الأفكار والمبادئ ليست من البِدَع القديمة إلا في نظرنا نحن ... إن الكلمات الصادقة العظيمة بخير، وهي لم تَزل حافظة قُوَّتها في كثير من الأمم والشعوب، وهي ما بَرِحَت جديرةً أن تُبذَل في سبيلها المُهَج والأرواح، وقَدِيرةً على أن تُثير في القلوب حب التضحية بغير ثمن.

الحمار: إنك لَتُدهِشني ... كيف استطاع عصر واحد أن يَجمع هذا التناقض؟ ... دماء تَسيل في مَجرًى ... وذهب يَجري في مَجرًى آخَر؟!

الحكيم: لقد اجتمع الضِّدَّان في كل زمان ... منذ فجر الخليقة والعظَمة تسير إلى جانب الحَقارة ... والسمو إلى جانب التدهور ... والعلو إلى جانب الحضيض ... ولكن العِبرة: أيُّ الطريقين تَختار لنفسك ولأمتك؟

الحمار: إذا سألتني أن أختار لنفسي فإني ...

الحكيم: انطق.

الحمار: دَعني أُفكِّر ... فإنك تعلم أني لا أعطيك ثمرة تفكيري إلا بعد تَرَوٍّ وتأمُّل.

الحكيم: مجرد التردُّد في الاختيار يَجعلني أحكم عليك بأنك حمار.

الحمار: أتظُنُّ أني وحدي؟! ... اطرح سؤالك على الناس ... وخيِّرهم بين المال والمبادئ ... ثم أَحْصِ بنفسك عدد المترددين.

الحكيم: آه ... والله «غلب حماري»!

حماري والسياسة

جاءني حماري أخيرًا ثائرًا يُزبِد ويَنهق ويُرعِد، قائلًا: اسمع ... إني مُصمِّم هذه المرة تصميمًا أكيدًا، ومُصِر إصرارًا تامًّا؛ فإياك أن تُثبِّط عزيمتي أو تحاول منعي، أو تتدخل في شئوني، أو تُعرقل مشروعاتي، أو تُفسد تفكيري، أو تُبرِّد حماستي، أو تكتم شعوري، أو تُخمِد نشاطي، أو تُطفئ لهيبي ... أو ...

– سبحان الله، سبحان الله! ... ما هو الموضوع أولًا؟!

– الموضوع يا سيدي أني قررت نهائيًّا الاشتغال بالسياسة.

– على الرَّحْب والسَّعة ... ومَن قال لك إني مُعارِض؟

– أنت موافق إذن على دخولي في مُعتَرك السياسة؟

– موافق جدًّا.

– هذا هو عَين العقل ... الواقع أنها كانت سُبَّة أن يجلس أمثالنا هكذا ينظرون إلى أحداث بلادهم ولا يُحرِّكون رأسًا ولا ذَنَبًا ... نحن الذين نَشأنا في هذا البلد، ونَعِمنا بخيره وخميره، ورعَينا برسيمه ونَجيله، وشربنا من ماء نيله ... كان حتمًا علينا أن يكون لنا يد في مصيره ... ونحن من أصحاب الفكر الراجح، ومن قادة الرأي الناضج.

فنظرتُ إلى حماري مَلِيًّا وقلت: أنت تتحدث عن نفسك بالطبع!

فلم يُعْنَ بالالتفات إلى ملاحظتي ومضى يقول: إنها لضريبة يجب أن يُؤديها أمثالنا؛ فالضرائب الواجب أداؤها للدولة ليست مجرد المال الذي يُدفَع للمُحصِّلين، ولكنها المواهب وثمراتها، والقرائح وآثارها. إن نِتاج الأذهان لا يَقِلُّ عن نِتاج الألبان ثروةً للأمة. وأنا — كما تعلم — لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أُؤدِّي ضَريبتي من نِتاج ضَرعي.

– مفهوم.

– إذن كان يجب أن أُساهِم في الحركة السياسية بنصيب؛ لذلك قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب.

– هل وقع اختيارك على حزب من الأحزاب بالذات؟

– لا، لم يحدث بعد ... وهذا بالضبط ما جئتُ أستشيرك فيه ... على أنه توجد صعوبة قد تقف في سبيلي ... يَحسُن بي أن أُذكِّرك بها حتى تكون على بَيِّنة من الأمر قبل الإدلاء بمشورتك ... تلك الصعوبة التي تُخيفني تتعلَّق بشخصي ... أعني: هل تظن أني سأجد أحزابًا تقبل أن يَنضم إليها حمير؟

– اطمئن من هذه الجِهة، ولا يَكُن عندك خوف!

فلمع الفَرَج والأمل من عينَي حماري وقال: إذن قد ذللت الصعوبة ... لندخل في جوهر الموضوع ... ما هو، في نظرك، الحزب الذي يتفق مع مبادئي؟

– أحب أولًا أن أتشرف بمعرفة مبادئك.

– مبادئي معروفة: العمل لمصلحة الغير، وإنكار المصلحة الشخصية ... ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض ... لقد عملنا وكدَحنا وجهَدنا لما فيه خير الآخرين ... ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما نستحق بعرَق الجبين ... فلم يُعرَف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط ... ولا نعِمنا بالترف والدلال كما تنعَم الخيول ... ولا طمِعنا في أن نُعزَّز ونُكرَّم ونُلقَّم السكر في أفواهنا ولا نعمل شيئًا؛ بل حياتنا هي العمل للغير ... العمل للنفع العام ... ولا شيء غير ذلك ... حتى لقد جرى الناس على أن يَنعَتوا من يَكُد ويَجِد بأنه «حمار شغل» ... فمبادئنا هي — كما ترى — أن نُنتج ونُنتج، ولا نبتغي من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا.

– تلك بالطبع مبادؤك باعتبارك حمارًا ... ولكنك تريد — على ما فهمتُ — الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر!

– نعم ... وهل يقتضي ذلك أن أُغيِّر هذه المبادئ؟!

– تغيير طفيف ... كلمة واحدة صغيرة ضعها خلف عبارتك ليكون مبدؤك سليمًا في عرف البشر ... ضع كلمة «لا» أي: لا إنتاج للغير، ولا إنكار للذات.

– عجبًا ... وما فائدة الحزب السياسي إذن؟

– فائدته نفع ذاته ... أليست هذه فائدة؟

– والآخرين؟

– أيُّ آخرين؟

– الفصيلة، أو الجنس، أو الأمة، أو الدولة، أو غير ذلك من الأسماء التي تُطلَق على المجموع.

– لا تَنْسَ أننا نتكلم الآن في محيط السياسة ... والسياسة هي اللباقة أو المهارة، أو الخفة أو البراعة، أو الكياسة التي تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من إصبع منافسك وتضعه في إصبعك إلى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة، فيسحب بدوره الخاتم من إصبعك ويضعه في إصبعه ... وهكذا دوالَيك ... حتى يتعب أحدكما من هذه اللعبة اللذيذة، وقلَّما يتعب ... فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا عدم إنتاج.

– والشعب ... أهو قانع بمجرد المشاهدة؟

– ومَن قال لك إنه قانع؟ ... لقد دخل هو أيضًا حلبة اللعب ... إن الساسة علموه كيف يتذوَّق تلك اللُّعْبة اللَّعِبة ... فأصبح أكثر منهم تهافتًا عليها واهتمامًا بها ... وأشد شوقًا إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد ... ولا يُطيق أن يصبر وقتًا طويلًا عليه وهو في إصبع واحدة ... شأن المقامرين الذين لا يُطيقون رؤية كرة «الروليت» تقف دائمًا على رقم واحد بلا تغيير؛ فهم يُهلِّلون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد ... ويفرح الرابح ويحزن الخاسر، ثم تدور الدورة ويتغير الوضع، ويتبدَّل أصحاب الفرح والترح بالتناوب، وهكذا دوالَيك.

– والشعب مسرور بذلك؟

– كل السرور ... ولقد آنَسَت منذ زمنٍ الحكوماتُ هذا الميل فيه ... فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات، وتيسير اشتراك كل فرد في هذه اللعبة، فجرت على سُنة بديعة، وهي أن تأتي كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ... أي «عدة الروليت» الخاصة بها ... فيُنصَب المولد، وتزدحم الجموع، وتنتقل النقود من جيب إلى جيب ... ويعلو الصياح من فم إلى فم، وتُمَد الموائد وتُقام الولائم ... ويكثر الطعام والشراب، والبذل والعطاء، ويُغمَر الشعب في جو صاخب كجو الأعياد ردحًا من الزمن، يُنسيه شقاءه، ويُلهيه عن مصيره.

– هذا شيء جميل.

– جدًّا ... على أن هذا كله كان يحدث في الماضي ... أما الآن فنحن أمام ظاهرة جديدة ... إن ثراء الحرب قد غيَّر عقلية الناس فيما يظهر ... ما من أحد يريد أن يخسر ... لذلك كثر اللعب في عين الوقت على رقمَين أو أكثر ... هذا بين اللاعبين على مائدة السياسة من أعضاء البرلمانات والأحزاب ... وقد انتقلت العدوى إلى الشعب، فجعل هو الآخَر مبدأه ذلك المثل الشعبي القديم: «من تزوج أمي قلت له يا عمي».

والأم هنا هي الحكومة، أو السلطة ... لذلك لا نستغرب خروج الناس أفواجًا من الحزب الذي خلا من السلطان، ليدخلوا أفواجًا في الحزب الذي لمع فيه الصولجان، كأنهم يخرجون من دار «سينما» تعطَّلت فيها الرواية، ليدخلوا المسرح الآخَر الذي أُضيء بأنوار الرواية الجديدة. ما دام هذا هو الاتجاه العام، فنحن سائرون بدون أي مجهود نحو توحيد الأحزاب.

– إذن، فأنت لا ترى لي أن أنضم إلى حزب بالذات؟

– انضم كما تشاء، ولكن على المبدأ الشعبي.

– «من تزوَّج أمي ...؟»

– بالضبط.

– ولكن ...

– لا تقل ولكن ... ولا تكن حمارًا ... إن عناد الحمير وصلابة رءوسها لا تنفع في السياسة ... واليوم كل شيء ليِّن مَرِن؛ لا في المبادئ وحدها، ولا في المحيط السياسي وحده، بل في كل محيط ... حتى بين الموظفين المسئولين عن تنفيذ القوانين ... ألم تسمع بخبر ذلك المأمور الذي حبس مجرمًا من مُجرمي التموين تطبيقًا للقانون، فاتصل به أحد ذوي النفوذ وأمره أن يُفرج عنه فورًا ... فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة ... وأجلسه في مكتبه ... ووقف هو بين يدَيه قائلًا: «والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة»؟!

– يا للعجب!

– لباقة ... أليست لباقة؟

– وا أسفاه! ... إني لا أملك هذه اللباقة.

– إذن ... اجلس حيث أنت ... ولا تطمع في الاشتغال بسياسة أو إدارة!

– بيني وبينك، ألا تظن أن هذه الحال في مجتمعكم يجب أن تُصلَح؟

– من فضلك، لا تُلقِ عليَّ أسئلة عويصة ... لأن ذلك سيجرُّنا إلى التساؤل: من الذي يُصلِّح؟ ... أهو المجتمع الذي يصلح الحكومة، أم الحكومة هي التي تصلح المجتمع؟ ... وهذا لا أجيب عنه إلَّا إذا أجبتني أنت: هل البيضة من الفرخة أو الفرخة من البيضة؟

– دعك من السفسطة! ... من يدري؟ ... ربما استطعت أنا أن أُصلح ... إن اشتغالي بالسياسة على مبادئي قد يعطي، على كل حال، خير مثل من أمثلة ...

– من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة الجديرة بحمار ... هذا ما سيُقال عنك وعن مبادئك.

– فليقولوا ما شاءوا.

– إني أعلم منذ الآن ما سوف يحدث ... فاجلس حيث أنت، واسمع نصيحتي! ... إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك ... ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم ... ولن يمضي وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تَعُد حمارًا.

حماري والطالبة

قال حماري يومًا إنه يلحظ أني بدأت أتبرم بمؤنة أكله وهو لا يعمل شيئًا غير إبداء الآراء، فاقترح عليَّ أن يقوم لي بوظيفة «السكرتير» الخاص أحيانًا ... فقبلت ... وجاءني أخيرًا يقول إن بالباب فتاة من طالبات الجامعة تريد مقابلتي ... فقلتُ له إن فكرتي عن الجامعة المصرية وطلَبتها وطالباتها غامضة كل الغموض؛ فأنا قد تخرَّجت في مدرسة الحقوق القديمة قبل أن تُنشأ الجامعة، فلم أحضر عهود النظم الجامعية في بلادنا، ولم أشهد ذلك الحدث الخطير في تاريخ الشرق: وهو جلوس الفتى والفتاة معًا تحت شجرة العلم المورقة ... فأجابني حماري بأنها إذن فرصة سانحة لمعرفة ما لم أعرف ... فقلت له بعد تردد: «أدخِل الطالبة على شرط ...» فسأل عن الشرط، فأجبته: هو ألَّا يتدخل في حديثي معها، لا بصفته حمارًا، ولا سكرتيرًا، بل ينتحي جانبًا ولا ينبس بحرف؛ خشية أن يلفظ كلمة من كلماته لي تُصغِّرني في عينَيها ... وكان شهمًا فقَبِل ... ومضى فأحضر الفتاة وأجلسها أمامي، وقبع هو في ركن بعيد ... وتركنا نتبادل هذا الحديث:

قلت لها: اسمحي لي أولًا أن أدعوك حواء.

فقالت من فورها: ولكن اسمي الحقيقي ...

– لا شأن لي باسمك الحقيقي ... أنتِ في نظري الآن تُمثِّلين كل طالبات الجامعة، وعلى هذا الاعتبار أُوجِّه إليكِ الكلام ... لقد دخلتِ يا حواء جنة العلم لتقطفي، إلى جانب الرجل، أشهى ثمار الفكر!

– أَوَلَسنا مساويات للرجل في كل شيء؟

– لست أدري ... إنما الذي أريد أن تعرفيه هو أنكِ حواء في جنة.

– الأورمان بالجيزة!

– إني لا أمزح الآن؛ لأن كلامي يرمي إلى مغزًى يجب إدراكه؛ حتى لا يتكرر وقوعكِ في عين الغلطة.

– أي غلطة؟

– إني أخشى دائمًا دخول حواء الجنة ... أي جنة!

– إن الجنة لا تُسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء ... لا توجد جنة بغير حواء.

– هذا صحيح للأسف ... لكن ...

– قل لي بالصراحة: ألا تأسف على أنك لم تحضر عهد الجامعة الحالي؟

– يُخيَّل إليَّ أني لو كنت حضرتُ جامعة اليوم لَمَا نجحت ولا أفلحت!

– معنى ذلك؟

– لا تسأليني إيضاحًا ولا بيانًا ... افهمي هذا القول على الوجه الذي يروق لكِ!

– حذارِ أن تشك في مقدار فهمي! ... إني أفهم جيدًا.

– ذلك أخشى ما كنت أخشاه ... لا تُخرج الجامعة مثيلات لـ «باحثة البادية» ولا قرينات لـ «مي» ... ولكنها تُخرج شيطانات صغيرات، قد أكسبهن الخروج إلى المجتمع، والاختلاط بالرجال، والاتصال بذوي الأفهام شيئًا كثيرًا من الفطنة والذكاء.

– ولماذا تخشى ذلك؟

– لأن الذكاء سلاح خطر، لا ينبغي أن يُوضَع في يدَي امرأة إلا بعد إعدادٍ روحيٍّ طويل.

– ولماذا لا تقول ذلك أيضًا بالنسبة إلى الرجل؟

– الرجل، الرجل! ... دائمًا الرجل! ... اتركي الرجل وشأنه ... نحن الآن نتكلم في المرأة.

– آه ... يا للمرأة! ... إذا ابتُلِيت بالجهل فهي مخلوق تافه ... وإذا مُنِحت الذكاء فهي مخلوق خَطِر!

– من غير شك ... تأمَّلي أمر حواء الأخرى الحقيقية ... لقد كفى أن يُلقنها «إبليس» شيئًا من الإدراك، وأن يُلقِي في روعها قبسًا من الذكاء لتُخرِج على الفور آدم من جنة عدن!

– لستُ أدري ماذا أُجيب دفعًا لهذا الاتهام الشنيع ... إنكم معشر الرجال لَتستخدمون كل ذكائكم في إلقاء مسئولية الأخطاء العظمى على كاهل المرأة!

– هذا، على كل حال، استخدامٌ لا ضرر فيه.

– لا ضرر في أن تلتصق بنا نحن المخازي والأباطيل! … أرأيتم كيف تضعون دائمًا بين مشاعركم ومشاعرنا، ومصالحكم ومصالحنا، وشئونكم وشئوننا هذا السد المنيع؟! … حقًّا! … إن المرأة والرجل مخلوقان مختلفان منفصلان … وأنتم الذين أردتم ذلك.

– الطبيعة هي التي أرادت ذلك … ولكن المرأة لا تريد أن تكف عن تكذيب الطبيعة والصراخ في وجهها: «لا فاصل بيني وبين الرجل … إني مساوية للرجل في كل شيء.»

– لا تتهموا الطبيعة أيضًا ظلمًا وباطلًا … إنها هي التي شاءت ألا يكون بيننا فرق من تلك الفروق التي تصطنعونها … تذكَّر يومَ كنا في الجنة … أعني حواء الأخرى وآدم الآخر … ماذا كانا يعملان طول النهار؟ … ماذا كانت تصنع حواء؟ … أظنك لن تزعم أنها كانت تصنع لآدم صينية بطاطس في الفرن … لقد كانا متساويَين في كل شيء … في نوع الحياة، في نوع الواجبات والحقوق، والمشاغل والأفكار … كلٌّ منهما كان يقطف فاكهته بنفسه لنفسه … وكلٌّ منهما كان يفعل ما يفعل الآخر، كأنهما زميلان نِدَّان … إني أتحدَّاك الآن أن تذكر لي عملًا واحدًا انفردت به حواء دون آدم أيامَ أن كانا في الجنة! … تكلَّم … لماذا لزمتَ الصمت؟ … اذكر مثلًا واحدًا فقط.

– سبحان الله! … كيف تريدين مني أن أعرف نظام الحياة الزوجية في الجنة؟ … من أدراني كيف كان توزيع العمل في أسرة آدم وزوجته؟ … تلك مسألة، فيما أظن، لا يعرفها غيرهما … ومن يدري؟! … ربما كانت حواء هي التي كان عليها هناك أن تقطف الفاكهة وتغسلها جيدًا في نهر الكوثر وتُعِد المائدة لآدم.

– أبدًا، أبدًا، أبدًا … من أين أتيت بهذا الكلام؟! … هذا خيالك باعتبارك رجلًا!

– إني أتحداكِ أن تذكري من الذي كان «يُفصِّل» من ورق شجرة التين الأثواب التي كان يستر بها آدم بعض أجزاء بدنه! … إني أراهن على أن حواء هي التي كانت تقوم، على الأقل، بمهمة التفصيل والتطريز.

– آه معشر الرجال! … ما أشد رغبتكم في أن تجعلوا منا طاهيات لكم وخادمات!

– في هذا تشريف لقدركنَّ.

– ماذا تقول؟ … ماذا تقول؟

– أقول إن مجد المرأة الخالد هو في أن القدر قد كتب على الرجل أن ينحني ليَطعَم من راحتَيها! … أنتِ التي تُمِدين الطفل والشاب والرجل بالغذاء، أي مادة الحياة … أنتِ التي جعلَتْ منك الأساطير والديانات القديمة صورةً لآلهات الخصب، ورمزًا لفكرة «الحياة»!

– لن تخدعنا بهذا الكلام المُنمَّق ... نحن نرفض هذه المهمة الصغيرة ... مهمة إطعامكم؛ لأننا نُحس في أنفسنا القوة والقدرة والكفاية للقيام في معترك الحياة بمهام أخطر من ذلك وأعظم!

– مهام أخطر وأعظم؟ ... مثل ماذا؟

– نحن نتعلَّم في الجامعة مثلما تتعلَّمون، ونتخرَّج فيها بشهادات في الحقوق، والطب، والآداب، والعلوم مثلكم تمامًا، وأحيانًا كثيرة نسبقكم ونَبُزُّكم في النبوغ؛ فلماذا لا يكون لنا مثل وظائفكم الهامة في المجتمع؟

– ما هو أقصى ما تطمعن فيه من تلك الوظائف الهامة؟

– لماذا لا يكون لنا مثلًا حق الانتخاب لعضوية البرلمان؟! ... لماذا لا تكون منا سياسيات ومستشارات ووزيرات؟! ... لم لا؟!

– وا أسفاه! ... أهذا أبعَدُ وأرفَعُ وأعلى ما تنظرن إليه؟

– ولِمَ لا؟! ... ولِمَ لا؟!

– أنا شخصيًّا لا مانع عندي مطلقًا من أن تهبطن إلى هذا المصير! ... ولكن بقية الرجال منذ فجر التاريخ قد خصُّوكن بمنصب يحسبون أنه أسمى من كل منصب!

– أهناك منصب أسمى من المستشارة والوزيرة؟

– نعم ... الإلهة والملكة ... ما أحمقَ الرجال! ... طالعي جيدًا أيتها الآنسة كتب التاريخ؛ بل تأملي تاريخ أي رجل: إن الحطَّاب في الغابة يَكُد كالعبد الرقيق طول نهاره ليعود عند الأصيل إلى ملكة وإلهة في داره، يضع عند أقدامها أجر جهاده ... وإن «نابليون» بعد كل معركة، كان يُرسل إلى أعتاب «جوزفين» أخبار انتصاراته، كأنَّها القرابين ... وإن كل عظيم إنما يعمل ويجهَد، ويناضل وينهزم ويفوز، ووراء خاطره شبح امرأة موجودة أو غير موجودة: أمٌّ، أو زوجة، أو صديقة، يُهدي إليها آخِر الأمر ثمرات نضاله.

ما كفاح الرجل إلا قربان للمرأة ... إن حواء يوم أخرجت آدم من الجنة، إنما أخرجته لتسود عليه ... لقد قلتِ لي أنتِ إن المساواة بينهما في الجنة كانت تامة؛ فلأُصدقكِ ... ولكن المرأة لا تريد المساواة ... إنها تريد السيادة ... وهي في الجنة مستحيلة ... فكان عليها إذن أن تخرج برَجُلها إلى الأرض والحياة والكفاح، لتجلس هي على العرش وتجعله عندها عبدًا رِقًّا، يكدَح من أجل لقمةٍ من يدَيها ... حواء هي دائمًا حواء ... لستن أنتن الطاهيات الخادمات، بل نحن معشر الرجال الخدم والعبيد، نشقى حياتَنا من أجل لقمة من أيديكن ... ومع ذلك لا نسمع منكن غير المنِّ والترفُّع.

– ها ... ها ... ها!

– تضحكين؟!

– حقًّا ... أنت أنت لا تتغيَّر ... ترفعنا وتخفضنا كما تشاء، وتجد مع ذلك الأسباب والحجج التي يصعب دفعها!

– لو عرفتِ الحقيقة لأدركتِ أني أريد أن أحتفظ لكنَّ دائمًا بمنصبكنَّ السامي الخطير؛ منصب الإلهة والملكة ... لا حبًّا لسواد عيونكن، بل لأني أعلم أن الرجال لا يستطيعون أن يعيشوا وأن يُنتِجوا بغير أن تحكمهم الأيدي الناعمة! ... إني لا أنظر إلى مصيركن؛ إنما أخشى على مصير الرجال إذا اخشوشنت أيديكن، ففقدت سحرها الذي يدفعهم إلى الكفاح والنضال والعظمة ... إني أريد أن أحافظ على «الإلهة والملكة» فيكنَّ، كما كان العبَّاد الوثنيون يحافظون على أصنامهم؛ لذلك أخشى عليكنَّ من تأثير الجامعة ... جامعة الرجال ... التي قد تصبُّ عقولكن في قالب عقل الرجال، وتَسلُب «معاملها» الكيميائية من أيديكن النعومة اللازمة لأيدي الإلهات والملكات ... أنتِ الآن يا حواء في «الجامعة» تعودين إلى المساواة بالرجل كما كانت حواء الأولى في «الجنة» ... فأين اليوم «إبليس» الذي يُغريكِ بالخروج منها كي تستعيدي في يديكِ السيادة؟!

– لا تؤاخذني! ... يا للهول! ... إني ألمح في عينَيك بريق نظرات إبليس.

وانطلقت الفتاة خارجةً ووَلَّت هاربة.

حماري والقاضية

ذكَّرني حماري ذات ليلة بعهد اشتغالي في القضاء، ولعله أراد — فيما يظهر — أن أُسلِّيه وأُرفِّه عنه، فطلب إليَّ أن أتصوَّر جلسة قضائية في محكمة ترأسها امرأة؛ لما يتوهمه من رأيي في المرأة … فلم يستطع ذهني أن يتخيَّل ذلك المنظر … وتركته آخر الليل، وذهبت إلى فراشي، ونمت نومًا عميقًا … فإذا بي أرى حلمًا مزعجًا … لو نجحت في وصفه كما وقع، لأغناني عن تخيُّل ما كان قد طلب إليَّ.

رأيت في الحلم أني رجل متزوج! … يا للكارثة! … ومتزوج بمن؟ … بسيدة تشتغل بوظيفة في القضاء … إنها قاضية في محكمة مصر الابتدائية الأهلية … وخُيِّل إليَّ — في الرؤيا — أنه قد مضت سنوات وأنا رازح في قيود هذه الزوجية الطريقة، راضٍ بما كُتب عليَّ، قانع بما قُسم لي … لا أجد غرابةً ولا غضاضةً في ذلك اللون من الحياة … وتلك — ولا شك — من خدع الأحلام؛ فهي تجتاز بنا الأعوام في شِبه طرفة عين، وتضغط الوقائع الكبار والأحداث الجسام، وتضعها في شبه برشامة يجرعها النائم، فيُحس نتائج ما حدث كأنه أمر طبيعي عرض له في الحاضر القريب أو الماضي السحيق.

على أن الأغرب من ذلك، أن أجد في الرؤيا أني أب لطفلة في العام الثالث من عمرها … وأن أُحس نحوها كل عواطف الأبوة … عجبًا! كيف استطاع الحلم أن يضع في قلبي مشاعر لا أعرفها ولم أحسها قط؟!

كانت الطفلة في ذلك اليوم مع مربيتها، وكنت أنا بجوارها ألاعبها، وخُيِّل إليَّ أني قد جعلتها تمتطي كتفي، وصرت أركض بها مثل الحصان، وهي تضحك تلك الضحكات الصغيرة البريئة، ثم دقَّت الساعة الثانية … فأحسَّت الطفلة الجوع، وبدأت تتململ ثم قالت «ماما» … فتنبَّهت إلى أن السيدة حَرمي لم تَعُد إلى المنزل بعد … فعلينا إذن أن

نتناول الطعام، أنا وابنتي وحدنا ... فأنا أيضًا أشعر بجوع، ولكن ماذا تصنع زوجتي في المحكمة حتى الآن؟ ... ألقيتُ على نفسي هذا السؤال مرةً ومرتَين ... ودفعني الفضول وحبُّ الاستطلاع إلى أن أتحرَّى الجواب ... فتركت الطفلة تتغدى مع المربية، وأسرعت أنا في سيارة إلى محكمة مصر الأهلية ... سألت عن الست ... فقيل لي إنها في الجلسة؛ فهي منتدبة قاضية للإحالة، وهي تنظر في إحدى الجنايات الهامة، فدخلت قاعة الجلسة، وجلست في مقاعد الحضور المحتشدين واندسَستُ بين جموع المشاهدين، فشاهدت الآتي:

زوجتي المصونة، والجوهرة المكنونة، متصدرة القاعة على المنصة، متوشحة الوسام الأحمر فوق رداء أسود حقيقة، لعله يحلُّ رسميًّا بالنسبة لهن محل الردنجوت أو «الاسطنبولينه»، ولكن يظهر أنها حلَّت بعض أزراره عمدًا، فكشف من تحته عن ثوبها «الكريب دي شين» الوردي الذي تقاضتني ثمن تفصيله منذ أيام ... وإذا هو يتسق اتساقًا جميلًا مع لون الوسام وهلاله ونجومه النحاسية اللامعة ... ولم يكن من اللائق طبعًا أن يبدو على شعر حضرة القاضية أو على وجهها وشفتَيها آثار «التواليت» بشكل يلفت النظر، ولكنها مع ذلك لم تَنْسَ قط أن تمر مر الكرام على ذلك الوجه بقليل من «البودرة»، ولا أن تَخُطَّ بخفةٍ على ذلك خطًّا أحمر يستطيع قراءته ذوو الأفهام؛ فالمرأة هي المرأة دائمًا، سواء ألبست النقاب والخلخال، أم الوسام وخوذة القتال. وكانت الإجراءات الأولى للقضية قد انتهت بوصولي، ولم يَبْقَ إلا دفاع المحامي ... فقد أبصرت القاضية الفاضلة مستغرقةً كل الاستغراق في الإصغاء إلى مرافعته الحارة، وكان ذلك المحامي شابًّا وسيمًا من شبان اليوم ... الذين يُحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنغيم أصواتهم.

فوقف متجهًا بكل جوارحه نحو الست زوجتي، وكأنه يَضِنُّ حتى بمجرد الالتفات إلى الآنسة «وكيلة النيابة»، بوسامها الأخضر والأحمر، وحركاتها العصبية الممزوجة بالدلع والدلال ... وقد كانت حضرتها، على لطف إشارتها ورقَّة إيماءتها، تعوزها المَلاحة التي تَفتن مثل ذلك الشاب. أما حرمنا، فمن سوء حظِّي كانت، فيما يظهر، أجمل من زميلتها قليلًا، فجذبت إليها وحدها عيون المحامي وعنايته واهتمامه، وربما قلبه أيضًا وعقله وباله وبَلبَاله ... وجعل هذا المفتون المأفون يتمايل تارةً، ويُرتِّب بأنامله نظام شعره تارةً أخرى، ويقول: يا حضرة الرئيسة ... هذه قضية الحب ... قضية القلب ... هذه القضية المطروحة بين يدَيك هي قضية متهمة تَعِسة مسكينة، لم ترتكب شيئًا غير الإصغاء إلى صوت قلبها ... ومتى كان في الاستماع إلى نداء القلب جريمة؟ ... يتهمون موكلتي بأنها قتلت زوجها بالسم لتفر مع حبيبها ... هذا صحيح ... وقد اعترفت في محضر التحقيق ... نعم، لقد

لجأت إلى القتل ... ولكن فلنسأل: لماذا فعلت ذلك؟ هذه المتهمة خدعها أهلها فزوَّجوها من رجل أقنعوها بالزواج منه؛ لأنهم وجدوه القرين الكفء ... وكم من الفتيات يُغريهن أهلهن بأن يتزوجن رجلًا لا يُحببنه؛ لماله أو جاهه أو شهرته، فيرضَين مدفوعاتٍ بهذا الإغراء ... ثم تمرُّ الأيام وينطفئ البهرج الخادع ... وإذا الشقاء يُخيِّم كالليل البهيم على قلوب هاته الزوجات التَّعِسات ... هذا ما حدث لهذه المتهمة ... اقترنت بزوجها المجني عليه، وعاشت معه أعوامًا أنجبت منه خلالها طفلة جميلة، ولكنها مع ذلك لم تُحس لهيب ذلك الحب الجارف العارم، والغرام المُحرق الضارم الذي قرأته في القصص وشاهدته في السينما ... يا للهول! ... أسيُقدَّر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء أو تُبصر لونه؟ ... هذا حقها ... هذا حق كل فتاة ... فلكل فتاة الحق في الحب ... في هذا اللون من الحب ... يجب أن تُصادفه ولو مرةً في حياتها ... وكان كل ذنب موكلتي وكل جريمتها أنها صادفت أخيرًا هذا الحظ ونالت هذا الحق ... كان ذلك في يوم هيَّأه القدر بدقَّة وحكمة وتدبير ... فقد وجدت ضالَّتها في صورة شاب جميل، تبعها يومًا في الطريق من محل شيكوريل إلى منزلها، وتمكَّن من معرفة رقم تليفونها ... فوالاها بعنايته، وبثَّها هواه ولوعته ... وسألها أن تُصغي إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام، وتترك منزل الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود ... ماذا تصنع هذه الزوجة في هذا الموقف يا سيدتي الرئيسة؟! ... من حسن الحظ أن القاضية لهذه المتهمة امرأة مثلها تستطيع أن تفهمها ... فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة.

ولم تنطق حضرة الرئيسة ... ولكنها تنهَّدت، وأشارت برأسها إشارةً معناها أنها فهمت! ... واستمر المحامي الرشيق يقول: كانت أمام موكلتي عقدة يجب حلُّها، وعقبة في سبيل هنائها يجب تذليلها ... هي زوجها ... إنها كانت تعلم أن هذا الزوج يعبدها عبادةً ... وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة ... وقتل نفسه أشنع قتلة ... فقد جاهر لها أنها هي كل شيء في حياته؛ فإذا خرجت من هذه الحياة، فأيسر من ذلك عنده خروج روحه من بدنه، فما العمل؟ ... أتتركه يضع السكين في فؤاده؟ أتدعه يتألم ذلك الألم المادي من جراحه، والمعنوي من خيبة أمله فيها؟! ... كلا، إنها زوجة طيبة النفس، رقيقة الحاشية، حية الضمير ... كان يجب عليها أن تؤدي واجبها المقدس نحو زوجها الأمين ... وقد فعلت ... نعم، لقد اختارت له — ووُفِّقت في الاختيار — نوع الموتة الهينة اللينة التي لا تُشعِره بعذاب ولا ألم.

وتهدَّج صوت المحامي في هذه العبارة، وتوقف عن الكلام خشية أن تخنقه العبرات، ونظر إلى رئيسة الجلسة المطرقة الساهمة ... فإذا بها — لدهشتي — قد بلغ بها التأثر ...

والتفتت إلى وكيلة النيابة قائلةً في صوت خافت: «معاكي منديل يا نبوية؟ ... نسيت منديلي في أوضة المداولة.»

وانطلق مُحامي المتهمة ماضيًا في مرافعته قبل أن يبرد الموقف، فصاح: نعم يا حضرة الرئيسة ... لقد قامت موكلتي بواجبها كزوجة أمينة وفيَّة لزوجها ... هذا السم الذي لا يُحدث آلامًا قبل الوفاة، ولا يُحس من يتعاطاه شيئًا سوى إغماء بسيط يعقبه نوم هادئ طويل عميق، كأنه نوم الأطفال.

فقاطعته القاضية الكريمة سائلةً: من فضلك، السم ده اسمه إيه؟

فلم أُطِق صبرًا، ولم أستطع احتمالًا ولا انتظارًا لنهاية القضية ولا لشيء آخر بعد ذلك ... فنهضت مرتاعًا من مقعدي، وخرجت من قاعة الجلسة وأنا أقول: قسمًا بالله العظيم، ما أتغدَّى في بيتنا بعد اليوم.

وأعماني الذعر، فعثرت قدمي بعتبة باب الجلسة، فهوَيت على الأرض، وعندئذٍ فتحت عيني؛ فإذا أنا متدحرج من السرير على أرض الحجرة ... فقمت أفرك أجفاني وأقول: «الحمد لله أني سليم مُعافًى ولم أتزوج قط ... ولن أتزوج أبدًا ... حتى إذا اختارني ربي إلى جواره وأدخلني الجنة، فسوف أطلب إليه أن يكون بيني وبين الحور سور»!

هنداوي